



رسائل جغرافية

ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربيّ من الدولة الإسلاميّة

د. يوسف بن احمد حوالة

رمضان ١٤١٢هـ
مارس ١٩٩٢م

١٤٢

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت
للمؤسسات ١٢ دينارا كويتيا (سنويا)
للأفراد ٦ دينارا كويتيا (سنويا)

خارج الكويت
للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا (سنويا)
للأفراد ٧.٥ دينارا كويتيا (سنويا)

الجمعية الجغرافية الكويتية
ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت الخالدية الرمز البريدي 72451

رسائل جغرافية

١٤٢

ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية

د. يوسف بن أحمد حوالة

أستاذ مساعد التاريخ الاسلامي بقسم العلوم الاجتماعية
كلية التربية فرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة
المملكة العربية السعودية

رمضان ١٤١٢ هـ
مارس ١٩٩٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية

د. يوسف بن احمد حوالة

تظل كتب الجغرافيا الاسلامية التراثية، شاهداً بارزاً على مقدار اسهام العرب والمسلمين في هذا الجانب المعرفي من الحركة العلمية. وحين تذكر الرحلات الجغرافية تقفز إلى الذاكرة مجموعة من الأسماء اللامعة التي تعد حقيقة علامات بارزة في هذا المجال.

ويعد محمد بن حوقل النصيبي، أو الموصلي، أو البغدادي[١]، وذلك بحسب اختلاف الروايات في تعيين مسقط رأسه واحداً من أشهر هؤلاء الجغرافيين الرحالة الذين أفرزتهم العصور الاسلامية الزاهية. وابن حوقل، وبهذا اشتهر[٢]، لا تعرف

---

(١) انظر ترجمته لدى: خير الدين الزركلي: الأعلام، منشورات دارا لعلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م، ٨ مجلدات، المجلد السادس، ص: ١١١، مع الحاشية التي تشير إلى مصادر الترجمة ـ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية، منشورات دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دون ذكر لرقم الطبعة ولا سنة الطبع، ١٥ مجلداً، المجلد ١١، ص: ٥، مع الحاشية التي تشير إلى مصادر الترجمة كذلك.

(٢) لم تعن المصادر والمراجع التي ترجمت لابن حوقل بتفسير هذا اللقب الذي اشتهر به ابن حوقل، كما هو الشأن في تفسير ألقاب العلماء والمؤلفين وغيرهم من الأعلام. ولسنا نجد في كتب اللغة التي أشارت إلى مادة: حَقَلَ، والمعاني التي تعنيها من قريب أو بعيد إلى التصاقها بالجغرافي الرحالة ابن حوقل. وعلى كل حال: فالحوقل في اللغة: اعتمد بيديه على خصريه. والحوقلة: سرعة المشي ومقاربة الخطو. والحوقل: الشيخ المسن، وغير ذلك من المعاني.
انظر مثلا: ابن منظور (ت ٧١١هـ): لسان العرب، منشورات دار صادر، دون ذكر سنة الطبع، ١٥ مجلدا، المجلد ١١، ص: ١٦١.

ولادته، ولا وفاته على وجه اليقين، وإن كان يظن أن وفاته كانت بعد سنة ٣٦١هـ[٣]. وفي مدينتي نصيبين، ثم بغداد، تلقى علومه الأولى، ولقد اتضحت ميوله العلمية في سن مبكرة متجهة نحو علم الجغرافيا، ذلك أنه طالع عدداً من كتب الجغرافيين المسلمين، فشغف بها، مما عمق في نفسه فيها بعد حب الرحلة الجغرافية. وعلاوة على ذلك كان اشتغاله بالتجارة ومزاولته لها، سبباً في تزايد حب الترحل والتجوال لديه. ومن هنا، فقد قام برحلات طويلة، استغرقت منه نحواً من ثلاثين عاماً، طاف خلالها معظم أقطار العالم الاسلامي آنذاك.

بدأ ابن حوقل رحلاته في سنة ٣٣١هـ، حيث جاب أولاً قطره: العراق، ثم عرَّج على ايران، ومنها إلى بلاد الهند، ثم عاد، فاتجه إلى بلاد العرب، وتحديداً الأحساء، ثم إلى بلاد الشام، ثم مصر. ويمَّم بعد ذلك وجهه نحو غربي الدولة الإسلامية، فزار بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، ثم الأندلس، ثم قام أخيراً بزيارة لجزيرة صقلية إبَّان وجود المسلمين بها حدود سنة ٣٦٢هـ[٤].

---

(٣) اختلف في سنة وفاته، فالزركلي: الأعلام، ج٦، ص: ١١١ يقول إنه توفي بعد سنة ٣٦٧هـ.
وعمر رضا كحاله: معجم المؤلفين، ج ١١، ص: ٥ يقول إن وفاته كانت سنة ٦٣٧ هـ.
أما حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات دار الفكر بيروت، لبنان، (طبعة مصورة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٦ مجلدات، المجلد الثاني، ص: ١٦٦٤، فيقول إنها كانت سنة ٣٥٠. وهذا خطأ ووهم من حاجي خليفة، فابن حوقل صرح في أخبار زيارته لصقلية ـ حسبما سنعرف ـ أنه زارها في سنة ٣٦٢هـ.
انظر ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص: ١٢٢.

(٤) اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم: منشورات دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص: ٢١٦ وما بعدها ـ عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، منشورات دار الفكر، دمشق، ط ٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص: ٢١٠ ـ ٢١١ ـ أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، منشورات دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، دون سنة للطبع، ص: ١١٧.

كتاب صورة الآرض وقصة تأليفه وترتيبه :

ضمَّن ابن حوقل مشاهداته وانطباعاته ومذكراته التي نجمت عن رحلاته، كتابه المعروف بصورة الأرض. وكتاب صورة الأرض كتاب جغرافي في المقام الأول[٥]. ولقد كان هذا هو الغرض من تأليفه، وهو بالتحديد يدخل ضمن دائرة كتب «المسالك والممالك» التي سبقه إليها بعض الجغرافيين المسلمين من أمثال البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٣٢٢هـ)، والأصطخري (أبو اسحاق: إبراهيم بن محمد الفارسي الملقب بالأصطخري ت ٣٤٠هـ)، ثم تابعت كتب الجغرافية الإقليمية الإسلامية ظهورها بعد ابن حوقل، ولعل من أشهر روادها: المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري المتوفي ٣٩٠هـ) صاحب كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ثم تابعت المدرسة الجغرافية الإقليمية بعد ذلك سيرها طوال عصور الإزدهار العلمي للعالم الإسلامي[٦].

ولقد أضاف ابن حوقل إلى كتابه هذا أخبار رحلاته التي قام بها على امتداد تلك السنوات الطويلة. ولذا فلن نبعد كثيراً إذا ماقلنا إن ابن حوقل يعتبر في عِداد الجغرافيين الرحالة، وأن كتابه بالتالي يدخل ضمن كتب جغرافية الرحلات. وكتاب صورة الأرض، حمل في الواقع عنواناً آخر، هو كتاب المسالك والممالك، غير أنه في الحقيقة يأتي في الشهرة والشيوع تالياً للعنوان الأول، وهو صورة الأرض[٧].

---

(٥) انظر حاجي خليفة: كشف الظنون، المجلد الثاني، ص: ١٦٦٢ ـ ١٦٦٤، حيث الإشارة إلى كتاب ابن حوقل واعتباره ضمن مصنفات علم مسالك البلدان.

(٦) سيأتي الحديث عن سمات هذه المدرسة لاحقاً إن شاء الله.

(٧) يبدو أن هذا القول يخص عصرنا الراهن. أما ابن حوقل نفسه: صورة الأرض، ص: ٥، ٦، فإنه يصرِّح بالعنوان الأول، وهو المسالك والممالك، فقال: هذا كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك... الخ ما جاء في المقدمة. وكذلك فعل حاجي خليفة: المصدر السابق والجزء، ص: ١٦٦٤، فلم يعرفه إلَّا بالمسالك والممالك.

ومما أصبح محل إجماع بين الباحثين المحدثين أن ابن حوقل، كما صرَّح في كتابه، كان متأثراً بالفعل بالأصطخري. ولهذا جاء كتابه على غرار كتاب الأصطخري: شكلاً، واسماً، وتخطيطاً، وقدراً من المحتوى، مع ما انفرد به ابن حوقل بالطبع من مادة علمية، جاءت عن طريق رحلاته المتعددة، كما صرَّح هو بذلك في مقدمة الكتاب. ويبدو أن ابن حوقل قد بلغ به التأثر بالأصطخري حداً جعله يطرح من كتابه كل مانقله عن الجغرافيين قبله، ورغب أن يكون اعتماده على الأصطخري وحده، وأن ينهج نهجه [٨].

ولكن هل يمكن القول إن اهتمامات ابن حوقل الجغرافية، ثم ولعه بالرحلات، كانا السبب في تأليف كتابه: صورة الأرض أو المسالك والممالك؟. نعم إنَّ هذا هو ما أفصح عنه ابن حوقل في مقدمة كتابه المذكور[٩]، عندما قال: «**وكان مما حضَّني على تأليفه، وحثَّني على تصنيفه، وجذبني إلى رسمه، أني لم أزل في حالة الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك، متطلعاً إلى كيفية البَين، بين الممالك في السيرة والحقائق، وتباينهم في المذاهب والطرائق، وكمية وقوع ذلك في الهمم والرسوم، والمعارف والعلوم والخصوص والعموم. وترعرعت، فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة، فلم أقرأ في المسالك كتابامقنعاً، وما رأيت فيها رسماً متبعاً، فدعاني ذلك إلى تأليف هذا الكتاب واستنطاقي فيه وجوهاً من القول والخطاب**». ويتابع شرح أسباب تحريره لكتابه بقوله: «**وأعانني عليه تواصل السفر وإزعاجي عن وطني، مع ماسبق به القدر لاستيفاء الرزق والشهوة لبلوغ الوطر،**

---

(٨) انظر ابن حوقل: المصدر السابق، المقدمة ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص: ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص: ٢١١ ـ ٢١٢.

(٩) راجع عن هذه النصوص، ص: ١٠ ـ ١٣.

بجوار السلطان وكلب الزمان. . فبدأت سفري هذا من مدينة السلام يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة»، ويضيف أيضاً: «. . **وكان أكثر مما حداني على هذا الكتاب وتأليفه على هذه الصورة، أني كنت في حالة الحداثة شغفاً بأخبار البلدان، والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستخدام لسافرة النواحي، ووكلاء التجار، وقراءة الكتب المؤلفة فيها»**.

مفهوم الرحلة الجغرافية:

مر بنا أن ابن حوقل يعتبر في عداد الجغرافيين الرحالة، وأن كتابه يدخل ضمن كتب جغرافية الرحلات. وفي الحق فإن هذا يستدعي منا وقفةً لتحديد طبيعة الرحلة الجغرافية أو مفهومها، وهل هناك فرع من الجغرافية يمكن أن يطلق عليه جغرافية الرحلات؟.

إن نقطة البدء حول هذه النقطة أو التساؤل، تنطلق من الحديث عن ميلاد الجغرافيا التي اصطلح مؤرخو الفكر الجغرافي على نعتها أو تسميتها بالجغرافية الوصفية. فلقد أجمع دارسو الفكر الجغرافي الاسلامي على أن ثمت اتجاهين يميزان علم الجغرافيا عند المسلمين ويسيران جنباً إلى جنب في خطين متوازيين، هما إتجاه معرفي علمي دقيق، ويمثله كأوضح مايكون التمثيل: الجغرافيا الفلكية أو الرياضية، والتي أطلق عليها المسلمون: علم الأطوال والعروض، وعلم تقويم البلدان، واتجاه آخر معرفي أدبي، ويتمثل في علم المسالك والممالك، وعلم عجائب البلدان. وميدان اهتمامهما هو جوانب الجغرافيا الطبيعية والبشرية، التي تتناول وصف الظواهر الطبيعية من جبال، وأنهار، وطرق ، وبحار، وبحيرات، وتربات، إلى غير ذلك، بجانب مظاهر الحياة البشرية، من تركيب سكاني، ووصف لمعايش الناس وأحوالهم

الإجتماعية والإقتصادية والمهنية، وغير ذلك. (١٠).

وقد كانت الحاجة الادارية والمالية والتنظيمية للدولة الإسلامية ـ وهي هنا الدولة العباسية ـ لمعرفة الأقاليم التابعة لها: بيئةً وسكاناً، وموارداً، هي السبب في نشوء نمط المسالك والممالك، فلقد دعت الحاجة الإدارية والمالية والتنظيمية إلى وصف أقاليم الدولة، ومعرفة الطرق، ومراحلها، والمنازل بين الأقاليم بعضها بعضاً، وتحديد المسافات، والطرق التجارية والبحرية، والاهتمام بغلات الأرض ومعادنها، هذا فضلاً عن الرغبة في معرفة البلدان التي فتحت، وكيفية فتحها، وهي القضية التي فرضت نفسها على المسلمين مبكراً لمعرفة التعامل مع أهل الذمة، وتوضيح مقادير خراجاتهم، وجزيتهم. (١١)

ومع مرور الوقت أخذت تتبلور أسس مدرسة جغرافية، تسير وفق نمط المسالك والممالك، ولكنها أضافت إليها عدة مرتكزات ميزتها عن تلك المؤلفات الجغرافية السابقة، بحيث أصبح يطلق عليها الجغرافيا الإقليمية الإسلامية، وهذه

---

(١٠) عن نشأة هذين الاتجاهين في الجغرافيا الإسلامية، انظر اغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ص: ٢٠ وما بعدها، ثم الفصول ٢، ٥، التي تتحدث عن الجغرافية الرياضية والإقليمية ـ نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ترجمة فتحي عثمان، منشورات دار القلم، الكويت، ط ٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، الفصول: ١، ٢، ٥ ـ صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي ـ سيرة ومسيرة، منشورات دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م، الفصل الثالث، ص: ١٩٧ ـ ٢١٦.

(١١) عن نشأة الجغرافيا الإدارية، والتي يمثلها نمط المسالك والممالك في كثير من جوانبه، انظر كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١ ـ نقولا زيادة: الجغرافيا والرحلات عند العرب، منشورات دار الأهلية للنشر والتوزيع، دون سنة للطبع ولا مكان الطبع، ص: ١١ ـ ١٣ ـ وانظر كذلك كتابه: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦، ص: ٦٧ ـ محمد محمود محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، الرياض، ص: ١٢١.

الأسس أو المرتكزات: التخصص في وصف مملكة أو دار الإسلام، أو بلاد الإسلام، وتقسيمها إلى أقاليم إدارية، وليس مُناخية أو فلكية[١٢]، وقد تفاوتت تلك الأقاليم عند ممثلي هذه المدرسة، في أعدادها، من ١٤ إقليماً، إلى ٢٠ إقليما، إلى ٢٢ إقليماً.[١٣].

والأمر الثاني الذي ابتدعته المدرسة الجغرافية الإقليمية، الاهتمام بإدخال فن رسم الخرائط أو المصورات الجغرافية (الكارتوغرافيا) في كتبهم الجغرافية، وهو الأمر الذي أعتبر تطوراً أو ارتقاءً في اتجاهات الفكر الجغرافي الإسلامي. ومما هو جدير بالذكر أن هذه المصورات التي أطلق عليها: أطلس الإسلام، تختلف عن خرائط المدارس الخوارزمية، كما أكَّد على ذلك الباحثون الغربيون.[١٤].

والأمر الثالث الذي ميز هذه المدرسة، هو أنه أمام تنامي الحس الجغرافي عند أتباعها، والشغف بأحوال دولة الإسلام الإدارية والمالية، لم يكتفوا بجمع المادة الجغرافية فقط، بل تطلعوا إلى الوقوف شخصياً على المعالم الجغرافية الطبيعية والبشرية. ولقد رأى هؤلاء أن معارفهم الجغرافية لا تكتمل إلَّا بالوقوف على تلك المعالم، واخضاعها للملاحظة المباشرة، أو المشاهدة والمعاينة. وهكذا ظهر الجغرافيون الرحالة، الذين اختلفوا عن الجغرافيين الأوائل من أمثال ابن خرداذبة صاحب أول

---

(١٢) لفظة الإقليم الذي اصطلحت الجغرافيا الإقليمية الإسلامية على استخدامه، لا يعني الإقليم بوصفه المُناخي أو الرياضي، أي: أحزمة عريضة، تضم عدداً من درجات العرض Klimata، مرتبة من الجنوب إلى الشمال، بل كمناطق جغرافية واسعة، أو ولايات regions، ذات مظاهر طبيعية معينة أو مناطق إدارية.

انظر كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٥ ـ محمد محمود محمدين: التراث الجغرافي الإسلامي، ص: ١١٣ ـ ١٢٤.

(١٣) كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٢ وما بعدها.

(١٤) انظر كراتشكوفسكي: نفسه، ص: ٢٢٤ ـ ٢٢٥ للتعرف على جوانب هذا الموضوع المهم من الفكر الجغرافي الإسلامي.

مؤلف يحمل اسم: المسالك والممالك، وقدامة بن جعفر صاحب كتاب: الخراج وصنعة الكتابة، وابن رستة صاحب كتاب الأعلاق النفيسة وغيرهم.[15]

تبقى الإشارة إلى أن الرحلات الجغرافية، تختلف عن الرحلات ذات الطابع الأدبي المحض، والتي دعت إليها بواعث مختلفة: علمية وسياسية، وسياحية صرفة. ذلك أن الرحلات الجغرافية، قام بها جغرافيون خُلَّص، بهدف معاينة وتطبيق مانقلوه أو جمعوه من مادة جغرافية من مؤلفات سابقة، أو لعلها تبدَّت لهم خلال تناقلاتهم.

أما الرحلات المحضة أو البحتة المنبثقة عن تلك البواعث السابقة، فهي التي يقدِّم فيها الرحالة في وصفه لرحلته، معلومات جغرافية، عَرَضاً، وليس قصداً، وهي بهذا المفهوم تشكل فرعاً من فروع الأدب[16]، لا فرعاً من فروع الجغرافيا، رغم المادة الجغرافية التي وردت في أخبار رحلته. أي أننا يمكن أن نقول بأن الرحالة قد لا يكون جغرافياً، ومع ذلك يقدم مادة جغرافية تضع نتاجه في مادة الجغرافية الوصفية أو الأدبية، وعلى ذلك نستطيع أن نقرر بأنه ليس كل جغرافي رحالة بالضرورة ولكن كل رحالة هو جغرافي بالضرورة. على أن الجغرافي إذا قام برحلته الجغرافية، فإنه معنيّ بالطبع باستنفار حاسته الجغرافية فيما يسمعه، وفيما يراه، وفيما ينقله انطلاقاً من واجبه بوصفه جغرافياً، هذا من نحو، وتطبيقاً لما أخذ به نفسه من تحديد لمعالم رحلته، أو رحلاته الجغرافية في مقدمة، مؤلفه وثناياه من نحو آخر.

---

(١٥) انظر عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٧٥ ـ نقولا زيادة: رواد من الشرق العربي في العصور الوسطى، ص: ٦٧ وما بعدها.

(١٦) عن نشأة الرحلة وبواعثها، بوصفها فرعاً من فروع الأدب، حتى لقد أصبح هناك لون من ألوان الأدب، عُرف بأدب الرحلة، انظر مثلاً: شوقي ضيف: الرحلات، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر دون سنة للطبع، ط ٣، ص: ٥ ـ ١٠، ٢٧ ـ ٤٧، ٤٨ ـ ٦٧. حيث قد فصَّل ذلك الأمر تفصيلاً رائعا.

مفهوم الجناح الغربي للدولة الاسلامية:

عندما اخترنا مفهوم أو تعبير الجناح الغربي للدولة الاسلامية عنواناً للبحث عن رحلات ابن حوقل الجغرافية له، كنا منساقين مع منهج ابن حوقل، الذي قسم مملكة الإسلام إلى ٢٢ إقليماً، بما في ذلك الأندلس وصقلية. ولقد وجدنا ابن حوقل يعطي في مقدمة كتابه، ثم في حديثه عن بلاد المغرب، مفهوماً واسعاً للمغرب، يضم الجناح الغربي للدولة الإسلامية: بلاد المغرب العربي بأقسامه الثلاثة: المغرب الأدني، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، علاوة على امتداده، أي المغرب الطبيعي نحو الجنوب إلى تخوم نهري السنغال والنيجر (بلاد السودان الغربي) ثم الأندلس وأخيرا صقلية[١٧] يقول ابن حوقل[١٨]: «**وأما المغرب فبعضه ممتد على بحر المغرب في غربيه، ولهذا البحر جانبان شرقي وغربي، وهما جميعاً عامران**». و «**أما الغربي فمن مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة**». وبالطبع فإنه يعني هنا بالجانب الغربي من بحر المغرب[١٩]:

---

(١٧) (بلاد السودان الغربي أو غربي إفريقية)، هو الأقليم الممتد جغرافياً من المحيط غربا قرب الرأس الأخضر، إلى بحيرة تشاد شرقا. وتقع هذه المساحة بين خطي عرض ٩°، ١٧° شمالاً تقريبا. وتشمل الأقاليم الواقعة شمالي الغابات الاستوائية، وجنوبي الصحراء الكبرى، أي منطقة السافانا، ويعرف هذا الإقليم أيضا بالسودان الأوسط، والسودان الغربي. وهو جزء من بلاد السودان التي عرفها الكتّاب العرب، ويعنون بها الحزام السوداني الممتد في قلب القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب، أي أن بلاد السودان تشمل في عُرفهم من الناحية الجغرافية إقليم غربي أفريقيا، ومعظم سودان وادي النيل.

انظر إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص: ٤ ـ ٥، وانظر كذلك كتابه الآخر: إمبراطورية غانة الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص: ٧ ـ ٨.

(١٨) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٤.

(١٩) أطلق الجغرافيون المسلمون على البحر المتوسط، عدة أسماء، بحسب السواحل التي يمر عليها: الشامية، والمغربية، والرومية، بل والمصرية (الإسكندرية).

انظر محمد محمود محمدين: المرجع السابق. ص: ٤٩٠، في مادته التي عنونها بأسماء البحار في كتب التراث.

وفيها يتصل ببلاد السودان الغربي، الذي يعتبر امتداداً طبيعياً لبلاد المغرب، فيقول: «**وقد بدأت بذكر حدَّه ـ أي بلاد المغرب ـ المحيط به من قبوله، وحدِّه من مصر الاسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلى بريَّة تنتهي إلى أرض النوبة آخذاً إلى البحر المحيط، ويمتد إلى حقيقة الغرب بنواحي أرض غانة وأرض أودغست، ثم يستمر عاطفاً إلى الشمال، ماراً على بلاد برغواطة وماسة إلى فوهة بحر الروم، الذي يأخذ من البحر المحيط بين أرض طنجة وأرض الأندلس، وراجعاً حدَّة من أرض طنجة على البحر إلى نواحي تنس، وإلى تونس والمهدية من أرض إفريقية مقبلاً على أرض طرابلس وبرقة إلى الاسكندرية**»[20].

أما الأندلس، فيقول عنها: «**وأما الأندلس، فهي جزيرة تتصل بالبر من جهة جليقية وإفرنجة، وهي في جملة المغرب**»[21]. والجملة الآخيرة مفيدة حقاً في توضيح رأي ابن حوقل الذي يجعل الأندلس في عِدادِ المغرب.

وأما صقلية، ففي الخارطة التي رسمها لبلاد المغرب، نراه يقول في أثناء حديثه عن القسم الثاني من صورة الأرض، ومافيه من الأسماء والنصوص: (.. **وفي البحر، رُسم من الجزائر، مالطة، قوسره، صقلية، سردانية، قرشقة... الخ**)[22]. ومن الطبيعي أن نؤكد على أن ابن حوقل يقصد من تلك الجزر، ماهو تابع لمملكة الاسلام، ولذلك نراه بعد فراغه من الحديث عن الأندلس وأحوالها، ويبدأ الحديث عن صقلية، نراه يقول: (**ويلحق بها ـ أي الأندلس ـ في حُسن الحال مما هو بيد أهل الإسلام: صقلية..**) الخ.[23].

---

(٢٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٤ ـ ٦٥.

(٢١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٥.

(٢٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٧.

(٢٣) نفسه، ص: ١٢٣.

وعلى كل هذا فإن ابن حوقل يوافق غيره من الجغرافيين المسلمين، الذين أعطوا تفسيراً أو مدلولاً واسعاً للمغرب، يشمل الجناح الغربي كله. فالأصطخري مثلا، يُعرِّف المغرب بأنه كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، ويقسمه إلى قسمين: قسم مغربي إفريقي بمدنه وقراه، أي أقسامه التاريخية الثلاثة التي ذكرناها سابقاً، وهو قسم شرقي، وقسم غربي، وهو الأندلس[٢٤]. بل لقد زاد مدلول المغرب إتساعاً، فشمل بالإضافة إلى الأندلس، مصر، باعتبار أن معنى لفظ المغرب لغوياً، إنما هو كل مايقابل المشرق من بلاد وأمصار. ومعنى هذا، أنه يشمل صقلية أيضاً، وكل ما استطاع المسلمون وضع أيديهم عليه من أوروبا الغربية[٢٥]. بل أيضاً وجدنا من يعتبر بلاد الشام داخلة ضمن مفهوم المغرب.[٢٦].

ولاشك أن هذا المفهوم الواسع الذي يدخل أقطاراً لا تربط بينها وحدة جنسية وطبيعية لايعدو أن يكون تنظيماً سياسياً وإدارياً، اقتضته مصلحة الدولة الإسلامية ـ وهي هنا الخلافة العباسية ـ التي اتخذت من دجلة والعاصمة بغداد خطاً طولياً تتفرع منه الخطوط الطولية، أي أنه غدا خط التقسيم، الذي يقسم الدولة، بناءً على قرارات من الخلفاء العباسيين، ولاسيما الرشيد، الذي قسم الدولة بين ولديه الأمين والمأمون، فأعطى الأول مغرب الدولة، وأعطى الثاني مشرق الدولة.[٢٧].

---

(٢٤) الأصطخري (ت ٣٤٦هـ): المسالك والممالك: تحقيق محمد جابر عبدالعال، منشورات دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٣٣.

(٢٥) انظر المقدسي (ت حوالي ٣٩٠هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ٢١٦.

(٢٦) انظر التحقيق الواسع حول هذا الموضوع الذي كتبه سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م، جزءان، الجزء الأول. ص: ٦١ ـ ٦٢ مع الحواشي.

(٢٧) سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ١، ص: ٦١ مع الحواشي.

تبقى أخيراً الإشارة إلى تعبير الجناح الغربي الذي استخدمناه، فالحقيقة أنه تعبير حديث، أو استخدام حديث، مثله مثل تعبير النصف الغربي للدول الإسلامية.[٢٨] فكلاهما تعبير حديث لمفهوم قديم لجزء من العالم الإسلامي، يشكل الرئة الثانية له.

(٢٨) انظر سعد زغلول عبدالحميد: نفس المرجع السابق أعلاه، ص: ٦١ حيث يتبنى هذه التسمية.

مادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية
في كتاب ابن حوقل وتنظيمها

يمكن القول في البداية إن مادة الجناح الغربي للدولة الإسلامية في صورة كتاب الأرض قد استغرقت حيزاً واسعاً من الكتاب، أي حوالي: ٦١[٢٩] صفحة، شغل المغرب العربي الأفريقي بأقسامه التاريخية الثلاثة: المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى، من هذه الصفحات: ٣٩ صفحة، أما الأندلس، فقد شغلت ٨ صفحات، متوافقاً مع الاعتبارات التالية:

١ ـ أنه يسير وفق الإطار أو المنهج الذي اختطه لنفسه في الحديث عن العالم الإسلامي أو بلاد الإسلام: إقليماً إقليمًا وصقعاً صقعاً دون أن يغفل التأكيد على أن هذا التقسيم، إنما هو تبويبي تنظيمي فحسب، لأن الأقاليم الاثنين وعشرين ـ التي انقسمت إليها ديار الإسلام وفق مخططه ـ، إنما تندرج ضمن الأقطار أو الأمصار الرئيسية التالية: ديار العرب، المغرب، مصر، الشام، الجزيرة الفراتية أو جزيرة أقور[٣٠]، العراق، فارس، السند، أرمينيا وأذربيجان والجبال، خراسان، بلاد ما وراء النهر[٣١].

---

(٢٩) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٤ ـ ١٢٥.

(٣٠) الجزيرة أو بلاد الجزيرة، هي المعروفة بالجزيرة الفُراتية، أي الجزيرة التي بين دجلة والفرات، وتسمى جزيرة أقور كذلك. وتشمل ديار مضر وديار بكر. سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات. انظر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٥ أجزاء، ج ٢، ص: ١٣٤ ـ ابن حوقل: نفسه، ص: ١٨٩ وما بعدها.

(٣١) انظر ابن حوقل نفسه، المقدمة، ص: ١٥، ١٦.

٢ ـ إن ابن حوقل ما انفك يؤكد في كل حين ومناسبة أن مفهومه للجناح الغربي للدولة الإسلامية، يدخل ضمن تعريفه لمدلول لفظ المغرب الجغرافي، وهو كل ما يلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي، بما في ذلك الأندلس والجزر الموجودة بالبحر المتوسط، وعلى رأسها صقلية، وما يتبع بلاد الإسلام من غربي إفريقية(٣٢).

٣ ـ إن ابن حوقل، عضَّد تعريفه أو تحديده لمدلول لفظ المغرب جغرافياً بالتحديد السالف الذكر، بالتخطيط الكارتوغرافي الذي دأب عليه، وهو يرسم أو يصور: خرائط أو خارطات، أو خرط ـ بحسب اختلاف أسمائها(٣٣) ـ، كتابه، والبالغة: ٢٢ خارطة لـ: ٢٢ إقليماً(٣٤). أقول عضد مفهومه أو تحديده ذلك بالخارطة التي رسمها أو صورها، وأطلق عليها: صورة المغرب، والتي تشمل الحديث عن: بلاد المغرب العربي الأفريقي، جزءاً من غربي إفريقية التابع لبلاد الإسلام، الأندلس، صقلية(٣٥)، وهو مفهوم الجناح الغربي للدولة الإسلامية الذي جاء البحث، ليوضح رحلات ابن حوقل الجغرافية له.

٤ ـ يلاحظ من خلال تتبع المادة الجغرافية الواسعة للجناح الغربي للدولة الإسلامية، تقيُّد ابن حوقل بالمسارين اللذين فرضتهما أو أفرزتهما الرحلة الجغرافية، أو بتعبير

---

(٣٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٦٤، ٦٩.

(٣٣) مصطلحات الخارطة والخريطة والخرط ـ وهي جمع لخريطة ـ مصطلحات حديثة نسبيا. والجغرافيون المسلمون ومنهم ابن حوقل كانوا يعبرون عن الخريطة أو الخارطة بـ: الصورة، مثل قول ابن حوقل عن خارطة العالم: هذه صورة الأرض. وهناك من العرب من استخدم عدة تعبيرات للدلالة عن الخريطة مثل: كلمة جغرافيا التي تعني رسم خارطة للأرض في بداية استعمالها أو جغرافية. أما الخريطة في اللغة فهي الكيس.
انظر محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص: ٢٢٠٧ ـ يوسف التوني: معجم المصطلحات الجغرافية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق ١٩٧٧م، ص: ١٩٩.

(٣٤) إغناطيوس كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٢، ـ ٢٢٧.

(٣٥) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٦ ـ ٦٧.

آخر مميزات الرحلة الجغرافية، حسبما وضحنا من قبل، وهما: المعالجة الجغرافية المقنَّنة ، ثم الانطباعات والمواقف، التي تأتَّت عن طريق الملاحظة المباشرة، والمشاهدة، أو المعاينة والمعايشة، والوقوف على تلك الأمور شخصيا. وهذان الاتجاهان كما هو معروف سارا جنباً إلى جنب لدى كل ممثلي مدرسة الرحلات الجغرافية[٣٦].

وبوسعنا القول أنه فيما يتصل بالمسار الأول أو الشق الأول من الرحلة الجغرافية، وهو المعالجة الجغرافية، يمكن التأكد على تقيُّد ابن حوقل بهذا المسار وهو يتحدث عن بلاد المغرب، بما في ذلك ما يتبع الإسلام من غربي إفريقية، الأندلس، صقلية، بطرحٍ جغرافي متميز، وفق المسَّلمَتَيْن التاليتين:

١ ـ التزام علمي جغرافي محض، بما أخذ به نفسه في المقدمة من التطرق لجوانب معرفية جغرافية محددة، أي تلك الجوانب التي قال عنها: (.. **هذا كتاب المسالك والممالك، والمفاوز والمهالك، وذكر الأقاليم والبلدان، على مر الدهور والأزمان.. وطبائع أهلها، وخواص البلاد في نفسها، وذكر جباياتها، وخراجاتها، ومستغلاتها، وذكر الأنهار الكبار، واتصالها بشطوط البحار، وما على سواحل البحار من المدن والأمصار، ومسافة ما بين البلدان للسفَّارة والتجار... مع ما ينضاف إلى ذلك من الحكايات والأخبار، والنوادر، والآثار...**)[٣٧].

وينتقل ابن حوقل من التعميم إلى شيءٍ من التخصيص بصدد تلك الجوانب فيقول في المقدمة كذلك، عن المضامين التي احتواها كتابه، وهي، (... **صفة أشكال الأرض، ومقدارها في الطول والعرض، وأقاليم البلدان، ومحل الغامر منها**

---

(٣٦) انظر قبل، ص: ٥.

(٣٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٥.

والعمران، من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها، وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها. . .)[٣٨].

ويعود إلى تأكيد منطلقاته في وضع مادة الكتاب، بالقول (. . . **وأعربت عن مكان كل إقليم ممَّا ذكرته، واتصال بعضه ببعض، ومقدار كل ناحية في سعتها، وصورتها من مقدار الطول والعرض، والاستدارة والتربيع والتثليث، وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل، وموقع كل مدينة من مدينة تجاورها، وموضعها من شمالها وجنوبها، وكونها بالمرتبة من شرقها وغربها، ليكتفي الناظر ببيان موقع كل إقليم، وموضعه ومكانه، وما توخيته من ترتيبه وأشكاله، وقصصته من أحواله وأخباره)**[٣٩].

على أننا نلحظ أن هذه المنطلقات لم تكن شاملة في حق كل أقطار الجناح الغربي للدولة الإسلامية، فهي إذا كانت واضحة بقوة في المغرب وما يليه من بلاد غربي إفريقية، فإنها فيما يتصل بالأندلس وصقلية تبدو خافتة. هذا شيء والشيء الآخر أن ابن حوقل لم يستطع الإلتزام الحرفي بكل ما أخذ به نفسه فيما يتعلق بمعطيات تلك المنطلقات الجغرافية التي قصد إليها من تأليفه كتابه. فجزيرة صقلية بمدنها العديدة، والجزيرة الأخرى قوصرة لم يحظيا منه بوصف تفصيلي، وركز كل وصفه على مدينتي: بلرمو، والخالصة، وحياتها الاجتماعية. أما بقية مدن جزيرة صقلية والتي يقول ياقوت[٤٠] إن عددها يصل إلى ثلاثٍ وعشرين مدينة، فلم يشر إليها البتَّة، مع أن بعض تلك المدن كان لها أهميتها إبان وجود المسلمين بالجزيرة مثل

---

(٣٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ص ١٠.

(٣٩) عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٢١٢ ـ ٢١٣، حيث خلت مقدمة الكتاب المطبوع الذي عوَّلنا عليه من هذه الأسطر.

(٤٠) معجم البلدان، ج ٣، ص: ٤١٦ ـ ٤١٧.

مدن: مازر، ومسينا أو مسينة، وقطانيا، أو مدينة الفيل، وطبرمين، وطرابنش وغير ذلك[٤١].

بل لعل من الغريب أن يغفل ابن حوقل الإشارة إلى بركان أتنا المشهور، الذي يشكل ظاهرة جغرافية واضحة لكل زائر لصقلية، هذا البركان الذي عرفه الجغرافيون العرب باسم: جبل النار، والذي يصل ارتفاعه إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر، وقد ذكره غير واحد من الجغرافيين العرب والمسلمين، مثل المسعودي والمقدسي، وياقوت. هذا البركان الذي كان يلهب الخيالات بتكوينه الجيولوجي الذي تكسو الثلوج قمته وقت هموده[٤٢]. كما أن ابن حوقل قد أغفل ولا ندري لم ذلك، الحديث عن المسافات والطرق البرية بين مدن جزيرة صقلية، وهو الذي وقف وعاين وشاهد وقدم لنا انطباعات طريفة في التحامل على صقلية؟[٤٣].

٢ ـ المسلّمة الثانية التي تقيَّد بها ابن حوقل، وهو يضمن المادة التي جمعها عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية: نقلاً ومشاهدةً ومعاينةً، هي: الالتزام المنهجي بما أخذ به نفسه في المقدمة كذلك من العمل على التثبُّت من معلوماته، أو بتعبير آخر التزام منهجي بالقيود التوثيقية التي اشترطها، وهو يودع المادة التي جمعها كتابه: صورة الأرض. هذه القيود التي يقول عنها: (... **وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقاً، وأخاله بما أسأله عنه خبيراً، فأجده عالماً عند إعادة الخبر الذي أعتقد**

---

(٤١) عن هذه المدن وعن جغرافية صقلية الإسلامية انظر سعد زغلول عبدالحميد: المرجع السابق، ج ٢، ص: ١٩٧ ـ ٢٠١.

(٤٢) ياقوت: نفس المصدر السابق أعلاه والجزء، ص: ٤١٨ ـ سعد زغلول عبدالحميد: نفس المرجع السابق والجزء أعلاه، ص: ٢٠٦.

(٤٣) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٣ ـ ١٢٥، حيث تنعدم الإشارة إلى الطرق والمسافات ـ إحسان عباس: العرب في صقلية ـ دراسة في التاريخ والأدب ـ منشورات دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٥، ص: ٢٣ ـ ٢٤.

فيه صدقه، وقد حفظت نسقه، وتأملت طرقه ووصفه، وأكثر ذلك باطلاً، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلا، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه والذكر، ليسمع الذي استوصفته، وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد رؤية، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية، فتتنافر الأقوال، وتتنافى الحكايات، وكان ذلك داعية إلى ما كنت أحسّه في نفسي بالقوة على الأسفار، وركوب الأخطار، ومحبة تصوير المدن، وكيفية مواقع الأمصار، وتجاور الأقاليم والأصقاع)[٤٤].

والحق أن معالم هذاالمنهج التوثيقي لا تكاد تبدو جلية واضحة، عند حديث ابن حوقل عن بلاد المغرب : مدنها، وطرقها، وغلاتها، وجباياتها المالية، إلاَّ في مثال واحد فحسب، يقول عن جباية بلاد المغرب: **(وسمعت أبا الحسن بن أبي علي الداعي . . . وهو صاحب بيت مال أهل المغرب يقول في سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة، دخل المغرب من جميع أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه . . . . . ، فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار، و . . . . سمعت هذه الحكاية بعينها واللفظ بصيغته من زيادة الله أبي نصر بن عبدالله بن القديم في سنة ستين يذكرها عن نفسه، وكان صاحب الخراج بإفريقية، وجميع المغرب، وكأنهما تفاوضا القول، وعلما وجوه ذلك، وما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب الأعمال، واستئثارهم بما يزيد على القوانين في أيديهم وما أبعد أن يكون ذلك لما بيَّنته في ضمان[٤٥] برقة وحالها[٤٦])**.

---

(٤٤) عبدالرحمن حميدة: المرجع السابق، ص: ٢١٢ ـ ٢١٣، حيث خلت مقدمة كتاب صورة الأرض المطبوع الذي عوَّلنا عليه من هذه الأسطر.

(٤٥) التقبل أو الضمان: اصطلاح مالي إسلامي، ظهر في عصر الدولة الأموية ثم تطور بعد ذلك في عصر الدولة العباسية، وهو نظام يعني: (أن يجعل شخص قبيلاً: أي كفيلاً (ضامنا) بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه، مقابل مقدار معلوم يدفعه ـ وهو ما عرف فيها بعد باسم نظام الالتزام ـ فيستفيد السلطان تعجيل المال، ويستفيد المتقبل الفرق بين ما دفعه وما حصله). وقد أنكره علماء الشريعة، ولم يقروه.

أما حديثه عن الأندلس وصقلية، ولا سيما فيما يتصل بانطباعاته التي كونها عنها ـ أي صقلية ـ، وهي الإتهامات التي تحامل فيها على أهل صقلية كثيراً. فإن الذي يهمنا منها هو مدى انسجام ابن حوقل مع نفسه فيما رسمه لها من قيودات توثيقية. ففي حديثه عن جبايات الأندلس كذلك في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (ت: ٣٥٠هـ)، يقول: **(وسمعت غير محصِّل (أي جابي الضرائب والموارد الرسمية للدولة)، ثقة، ممن يستبطن جبايات البلد، وحاصل (أي محصولات) عبدالرحمن بن محمد، أن لديه ممَّا ـ اتجَّه له جمعه من الأموال إلى سنة أربعين وثلاثمائة مالم ينقص عن عشرين ألف ألف دينار، إلا اليسير القليل... الخ)**[٤٧].

وفي معرض نقده لعلماء وأدباء صقلية، يروي عن القاضي عثمان بن الخراز حكاية تدل على معاناته من أهل صقلية، فيبدأ حديثه بما يؤكد نهجه التوثيقي، فيقول: **(وحدثني غير إنسان منهم أن عثمان بن الخراز، ولي قضاءهم وكان ربما قد ركن إلى قوم منهم في العدالة والشهادة... إلى نهاية الحكاية التي يدل سياقها على خيبة ظن القاضي، فيما كان يظنه: رأسا في أهل صقلية**[٤٨].

محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، منشورات دار الأنصار، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٧م، ص: ٢٦١ مع الحواشي، ٥٠٧ مع الحواشي كذلك.

(٤٦) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٤.

(٤٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠٧.

(٤٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٨.

الاتجاهات الجغرافية التي عالجها ابن حوقل في كتاباته ورحلاته لجناح الدولة الإسلامية الغربي

يمكننا التأكيد من خلال دراسة نقدية فاحصة لرحلات ابن حوقل الجغرافية للجناح الغربي للدولة الإسلامية، على أن ابن حوقل شأنه شأن غيره من الجغرافيين ـ والرحالة كذلك ـ، قد عالج في كتابه جميع أو معظم ميادين المعرفة الجغرافية التي تعنى بها الجغرافيا الحديثة ـ ولكن وفق منهج الفكر الجغرافي القديم أو التراثي السائد وقتها بالطبع[٤٩] ـ. وهذه الاتجاهات الجغرافية، هي:

ــ الجغرافية الاقتصادية[٥٠] بكل ميادينها، أي الجغرافيا الزراعية، والجغرافية الصناعية، وجغرافية التجارة، وجغرافية الطرق والنقل التي تربط بلاد العالم الإسلامي.

---

(٤٩) عن الفكر الجغرافي التراثي، الذي عُني به الجغرافيون المسلمون، سواء ما نقلوه عن الفكر الجغرافي اليوناني أو الهندي، أو ما أضافوه هم، ثم الانتقال إلى أسس أو مرتكزات الفكر الجغرافي الحديث، انظر مثلا صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي ـ سيرة ومسيرة ـ، الفصل الثالث، ص: ١٧٥ ـ ٢٦٨، الفصل الرابع، ٢٦٩ ـ ٣٧٢ مع الخاتمة.

(٥٠) الجغرافيا الاقتصادية: فرع من فروع الجغرافيا البشرية، يهتم بدراسة وانتاج وتوزيع وتبادل واستهلاك الثروات، وكذلك دراسة العوامل الاقتصادية التي تؤثِّر على الاختلافات السكانية لسطح الأرض.
يوسف التوني: معجم المصطلحات الجغرافية، ص: ١٥٤.

ـ الجغرافيا البشريـة، أي الجغرافيـة التي تعنى بدراسـة الشعوب مّمـا يدخـل في مجال الجغرافيا الاجتماعية[٥١]، بالاضافة إلى ما يتعلق بجغرافية المدن.

ـ الجغرافية الحيوية، وهي التي تعنى بجغرافية النبات، والحيوان بصفة عامة[٥٢].

ـ الجغرافية الطبيعية، وهي وصف الظاهرات التضاريسية والمناخية[٥٣].

ـ جغرافية الأجناس البشرية أو جغرافية السلالات البشرية[٥٤].

وعلاوة على هذه الأنماط الجغرافية المتعددة، كان ابن حوقل يركز في صفحـات

---

(٥١) تعـرف الجغرافيـا البشرية، بـأنها: الدراسـة الجغرافيـة (المكملة للجغرافيـة الطبيعيـة) لتلك الأشيـاء أو الظاهـرات من سطح الأرض التي تـرتبط مباشرة بـالانسان أو تعـزى إليه، أو إلى نشاطه، وهي أحد أقسام الجغرافيا الرئيسية، وتضم عدة فروع منها: الجغرافيا الإقتصاديـة، والجغرافية السياسية، والجغرافية الإجتماعية، والجغرافية الطبية، وما إليها.
يوسف التوني: المرجع السابق، ص: ١٥٤.

(٥٢) الجغرافية الحيوية: (١) الدراسة الجغرافية للطبيعة الحيّة. (٢) جغرافية الحياة العضوية.

(٥٣) الجغرافية الطبيعية: (١) الدراسة الجغرافية لـظاهرات سـطح الأرض التي يطلق عليهـا اسم «طبيعية».
(٢) بالمعنى الضيق، وهي: الدراسة الجغرافية للظاهرات غير الحيّة على (سطح الأرض) ومن ثم فلا تشمل (الجغرافية الحيوية)، ولكنها تتضمن دراسة الصخور، والتربـة، والتضاريس، والجيمورفولوجيا (علم أشكـال سطح الأرض). والبحـار، والمحيطات، والغـلاف الجوي، وأحياناً العلاقة بين الانسان والطبيعة.
يوسف التوني: نفسه، ص: ١٥٦، ١٦٩.

(٥٤) جغـرافيا الأجنـاس البشرية، أو جغـرافيا السـلالات البشرية، وليس لهـا تعـريف حـديث، ولكنها تشمل دراسة تطور الإنسان، وتوزيـع سلالاتـه، والتركيب العنصري لمختلف أقـاليم سـطح الأرض. فالعلم مـوزع الآن بين الجغـرافيـا التـاريخيـة والأنـثروبـولـوجيـا الـطبيعيـة (اثنولوجيا).
يـوسف التـوني: نفسـه، ص: ١٦٦، ثم انـظر عن مـرادفـة علم الـ: اثنــولـوجيــا، لعلم الانثروبولوجيا، ص: ١٩.

عديدة على الجغرافية الإدارية كمفهوم إسلامي أفـرزته حـاجة الـدولة الإسـلامية إلى معرفة العامر والغامر من أرض الإسلام وخراجاتها. ومن المعـروف أن هذا الأمـر من أهم دواعي أو بواعث الرحلات الجغرافية، التي أفرزت هـذا العلم الجغرافي المهم في تاريخ الدولة الإسلامية، بجانب البواعث التجارية والعلمية، والدينية، والسياحية، حسبما مر بنا سابقا.

وبجانب الأنماط الجغرافية السـابقة، نجـد ابن حوقـل، يضمن كتابـه المجهود العلمي التصـويري أو الكـارتوغـرافي، وذلك بـرسمه صـورة الجناح الغـربي للدولـة الإسلامية ـ مثلما فعل ببقية الأقـاليم الإسلاميـة الجغرافيـة الأخرى ـ، والـذي أطلق عليه: صورة الأرض، وقسمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية[٥٥].

بقي أن نشير أخيراً إلى عدد من الحقائق في هذا الصدد، هي:

١ ـ أن ترتيبنا للأنماط أو الأنـواع الجغرافيـة التي عالجهـا ابن حوقـل في كتابـه، والتي تمّشت مـع الجغرافيـا الحديثـة في أغـراضهـا ـ ولكن بمحتـوىً ومنهـجٍ مختلف ـ، بالصورة التي رتبناها، كـان مقصوداً لـذاته، فـاهتمامـات ابن حوقـل أو اتجاهـاته الجغرافية التي لاحظناها من خلال تتبعنـا لمادة الجنـاح الغربي للدولـة الإسلاميـة عنده، تؤكد ما ذهبنا إليه، فالجغرافيا الاقتصادية ـ بكـل أنماطهـا ـ تأتي في المقـام الأول، ثم يليها الجغرافية البشرية، فالجغرافيـة الحيويـة، فالجغـرافية الـطبيعية، وأخيراً الجغرافية السلالية.

---

(٥٥) انـظر ابن حـوقـل: نفسـه، ص: ٦٤، ٦٦ـ٦٨. ولا يفهم من هـذا أقسـام بـلاد المغـرب السياسية والإداريـة: المغرب الأدنى، المغـرب الأوسط، المغرب الأقصى، ولكن تقسيمـه هو لسـواحل البحـر المتوسط والمحيط الأطلسي ـ حيث يـطل الجناح الغـربي للدولـة الإسـلاميـة عليهما، سواء السواحل الإسلامية، أو السواحل البيزنطية، أو الجنوب الايطالي، أو الساحل الأندلسي من المحيط والمتوسط، مع ما وراء الصحراء الكبرى من بلاد السودان الغربي.

٢ ـ إن معالجته لتلك القضايا، وطريقة عرضها قد لامست العموميات فقط، دون أن تهتدي إلى التأثير والتأثر المتبادلين بين الإنسان وبيئته، وبين العلاقة الجيمورفولوجية بين أشكال سطح الأرض. وهو أمر طبيعي في معظم كتب الجغرافيا الإقليمية عند العرب.

٣ ـ إن معالجة ابن حوقل لتلك القضايا، وطريقة عرضها لم تكن واحدة في حديثه عن أقطار الجناح الغربي للدولة الإسلامية. فصقلية مثلاً، خلا حديثه عنها من الجغرافية الحيوية البتّة[٥٦]. ويقال نفس الشيء عن جغرافية السلالات. أما الجغرافيا الاقتصادية، فقد كانت قليلة نزرة، ويمكن أن تصنّف مادة صقلية في كتابه بأنها مادة جغرافية بشرية في معظمها.

أما الأندلس، وإن تمثلت فيها الجغرافيا الاقتصادية، والبشرية، والحيوية، والطبيعية، إلاّ أن ذلك لم يكن بدرجة واحدة، هذا شيء، والشيء الآخر، اختفت منها كذلك الجغرافيا السلالية.

ويظل المغرب وحده، الذي تمثلت فيه كل تلك الأنواع، مع فقرٍ شديد في الحديث عن الجغرافية البشرية.

---

(٥٦) اللهم إلا ما قاله في نهاية حديثه ـ وهو أمر قابل للمناقشة ـ آن تربتها وقمحها، وحبوبها فاسدة، ولا يحول الحول عليها عندهم إلاّ وقد فسدت، وربما ساست في الأنادر قبل دخول المطامير والأهراء.
انظر، ص: ١٢٤.
والأنادر: الأحايين، أو أحياناً قليلة.
والمطامير: المطمورة: حفيرة تحت الأرض قد هيأت، تخبأ فيها الحبوب.
ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص: ٥٠٢، ج٥، ص: ٢٠٠.

٤ ـ أن حديثه عن بلاد المغرب، وبلاد السودان الغـربي، والأندلس، وصقليـة، كان متفاوتا فيـها يتصل بتلك الأنمـاط أو الأنواع في حجمـه: اتساعـاً وضيقاً. غـير أن الملاحظ أن مادة الجغرافيا الاقتصادية، هي حجر الزاوية فيها كلها.

٥ ـ تكاد تنعدم الإرشادات الدالة صراحة على رحلاته في بلاد المغرب، وأما إشارات، رحلاته في بلاد السودان الغـربي، فقد كـانت أوضح بعض الشيء، وكـذا الحال بخصوص الأندلس. فقد تعددت الإشارات الصريحة الـدالة عـلى رحلته إليهـا، وذلك في المادة التي احتواها كتابه عنها[٥٧].

---

(٥٧) سنشير الى ذلك لاحقاً إن شاء الله.

نماذج من الجغرافيا الطبيعية في كتابات ابن حوقل عن الجناح الغربي للدولة الإسلامية

هل جذبت ابن حوقل في رحلاته الجغرافية إهتمامات أو بعض إهتمامات الجغرافيا الطبيعية؟ الجواب بالتأكيد: نعم، فلقد عالج ابن حوقل بعض تلك الجوانب بما فيها من ظاهرات، مثل الجبال والصخور، والتربة، والبحار، والسهول، والصحارى. بيد أنه يجب توخي الحذر هنا. فتناوله لتلك الظاهرات كان تناولا سطحياً ، بل يكاد يكون عمومياً كما سبق أن أوضحنا. وهنا سنكتفي بذكر نماذج محددة، هي الوحيدة تقريبا التي تدل على اشتغاله بهذه الجوانب، هذا من جهة، ولكي ندلِّل ونوضِّح صدق ما ذهبنا إليه من وصفها ـ أي تلك الإهتمامات ـ بالسطحية والهامشية من جهة أخرى.

في البدء نلاحظ أن ابن حوقل، وهو الذي اكتفى بذلك الكم الضئيل من الجغرافيا الطبيعية، كان يزيد على ذلك، فلا يسمِّيها لنا، بل ـ وهذا هو المستغرب ـ نراه لا يعنى بذكر بعضها، وهي التي تشكل أهمية كبيرة في تاريخ بلاد المغرب وطبعه بطابعها الجغرافي، والذي أسهم في تشكيل حياة بلاد المغرب الإجتماعية والثقافية والسياسية كذلك، حسبما سيتضح لنا بعد قليل.

ولكي نؤكِّد على التناول السطحي لبعض تلك الظاهرات الطبيعية، نقف عند إشارته إلى الجبل الذي يحيط بمدينة برقة الليبية، الذي يعد ظاهرة جغرافية لها أهميتها في تاريخ مدينة برقة، أعني بذلك الجبل الأخضر. يقول ابن حوقل عنه: (**ويحيطها**

جبل من سائر جهاتها)[٥٨]. وهكذا نراه لم يعن حتى باسم الجبل، ناهيك عن أهميته أو جيمورفولوجيته[٥٩]. وعند حديثه عن مدينة طرابلس، نراه يكتفي بإشارة خاطفة إلى الجبل الذي يحيط بها، وهو جبل نفوسة ولا سيما المدينة، كالهلال، ويفصل بينها وبين الصحراوات الجنوبية[٦٠]. لننظر إليه يقول: (. . . **وأما جبل نفوسة، فجبل عال منيف يكون على نحو ثلاثة أيام في أقل من ذلك)**[٦١]، يقول هذا في الوقت الذي نرى الجغرافيون الآخرون يبسطون الحديث عن هذا الجبل، وكيف أنه يشكل ذراعاً أو امتداداً لجبال أطلس، والتي عرفوها بجبال درن[٦٢].

وعلى الرغم من أن ابن حوقل قد أشار إلى جبل أوراس كظاهرة تضاريسية ذات أثر في تاريخ مدينة باغاي وما حولها (وهي من مدن المغرب الأوسط: الجزائر الحالية)[٦٣]، إلاَّ أنه لم يفطن إلى أنه تشكِّل مع جبال أخرى، سواء ما أشار إليه في حديثه عن جبلي برقة ونفوسة، أو ما أغفل الإشارة إليه، جزءاً من سلسلة جبال درن

---

(٥٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩.

(٥٩) يقول يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٨١م، ص: ٢٧٠. (إن الجبل الأخضر، جزء من الحافة التالية للهضبة الكبيرة التي تحتضن الصحراء الكبرى، وتنحدر انحداراً تدريجياً كلما اتجهنا صوب البحر المتوسط، فتلتقي معه التقاء فجائياً، بحيث تبدو الحافة الشمالية للهضبة على هيئة حوائط شديدة الانحدار، ويمثلها: الجبل الأخضر، والجبال الطرابلسية). (وأنه قد سمي بهذا الاسم، نظراً لأن سطحه يغطى بنباتات واحراج دائمة الخضرة، الأمر الذي دفع الأهالي في بعض الأحيان لأن يطلقوا عليه اسم الغابة)، حاشية (١)، ص: ٢٧١.

(٦٠) انظر سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج١، ص: ٦٦.

(٦١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٢.

(٦٢) انظر مثلاً، البكري (ت٤٨٧هـ): المغرب في ذكر بلادافريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي سلان، الجزائر، ١٩١١م، ص: ١٦٠ ـ ثم انظر سعد زغلول عبد الحميد: نفسه، ج١، ص: ٦٦ مع الحواشي.

(٦٣) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨١.

التي عرفها الجغرافيون المسلمون بهذا الإسم، وهي التي تعرف حاليا بجبال الأطلسي بمجموعتيها: أطلس التل، وأطلس الكبرى، والتي تشكل الظاهرة التضاريسية الكبرى التي شكّلت تاريخ بلاد المغرب العربي كله، وتمتد كالعمود الفقري فيه من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي، وبالتالي تركت أثرها في تاريخه السياسي والاجتماعي. ولهذا فيبدو غريبا أن يهمل ابن حوقل الإشارة إلى هذه السلسلة الجبلية، ولا سيما في بلاد المغرب الأقصى الذي يحتوي هو نفسه على جبال أطلس الكبرى أو العليا ذات الارتفاع الشاهق[٦٤].

هذا التجاهل يدعونا إلى التساؤل: هل حقا قام ابن حوقل بزيارة بلاد المغرب كلها؟. يبدو لنا أنه لم يستطع فعل ذلك، وإلاّ فما الذي يمنعه من وصف هذه الظاهرة الجغرافية الكبرى؟، ثم أنه قد يكون معقولا ومقبولا هذا التساؤل، ولا سيما ونحن نعرف أن ابن حوقل نفسه وكما جاء على لسانه لم يشاهد الصحراء الغربية الكبرى، فلم لا يكون ذلك كذلك[٦٥]؟.

وأيّاً ما كان الأمر، فلندع هذا ونتنقل مع ابن حوقل إلى مظهر تضاريسي آخر، وهو الأنهار والوديان. الحق أن مشاهدات ابن حوقل ـ وإن شئنا الدقة: ونقولاته ـ بشأن هذه المجاري المائية كانت أوسع وأغزر من المادة التي خصصها للجبال. فلقد

---

(٦٤) انظر السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ـ العصر الإسلامي ـ وهو جزء من موسوعة تتحدث عن بلاد المغرب في العصور القديمة، والعصر الإسلامي، والعصر الحديث، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص: ١٢٨-١٣١ سعد زغلول عبد الحميد: نفسه، ص: ٦٦، ٧٠-٧٢. وانظر كذلك يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، ص: ١٤٠.

(٦٥) انظر ابن حوقل: نفسه، ص١٠١، وانظر كذلك آدم متز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، جزءان ـ ج٢، ص: ١١.

تناثرت الإشارات العديدة إلى تلك الأنهار والوديان، وهكذا نـراه يتحدث عن أنهار: شلف، وتنس، ونهر فـاس، وملاق، ونهر سجلماسـة. وأما الـوديان فعـديدة: وادي تـافنا، ووادي سفـدد، ووادي تشمس، ووادي سبه (سبـو)، ووادي فاس، ووادي سـلا، ووادي طابيـة أو تيجس، ووادي باغـاي، ووادي سهـر، والـوادي المـالـح، ووادي ايناون، ووادي نمالته، ومسون، وملوية، وصالح[٦٦]، وغير ذلك. هذا فيـما يتعلق بأنهار وأودية بلاد المغرب والسودان الغربي، أما الأندلس، فقد أشار إلى بعض من أنهارهـا وأوديتها، مثـل قرطبـة (الوادي الكبـير). ونهر ملقـون، ونهر التـاجـو أو التـاجـه[٦٧]. ولم يسم النهـر الـذي يصب في المحيط الأطلسي واكتفى بقـولـه: (. . . . **والنهـر الآخذ من سمـوره مـدينـة الجـلالقـة الى مـوضـع مصبّـه من البحـر المحيط**). وبالطبع فهو يقصد بهذا النهر، نهر: دُويره: Duero ويكون مصبُّه، مع نهر التاجو، ونهر: آنا: Guadiana الحد الجنوبي بين اسبانيا والبرتغال[٦٨].

ولا يخلو حـديثه عن صقليـة من ذكر بعض أنهارهـا، مثل وادي عبـاس، ونهر روطة[٦٩]، ولم يعن بتسمية بقية الأنهار الأخرى.

إن ابن حوقل وقد أشار إلى هذه الأنهار، يمكن أن يلاحظ عليه أنه لم يفطن إلى ذكر كيفية تكوينها، أو نشأتها، وهو أمر فطن إليه بعض الجغرافيين المسلمـين بحسهم

---

(٦٦) عن هذه الأنهار والوديان والمدن التي تطل عليها، انظر ابن حوقـل: نفسه، ص: ٦٨، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩٢.

(٦٧) عن هذه الأنهار والمدن التي تطل عليها، انـظر ابن حوقـل: نفسه، ص: ٦٨، ٦٩، ١٠٥، ١١٠، ١١١.

(٦٨) انظر البكري: جغرافية الأندلس واوربا، من كتاب المسالـك والممالـك، تحقيق عبد الـرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد للطباعـة والنشر والتوزيـع، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ص: ٧١.

(٦٩) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٤، ١١٦.

الجغرافي العميق[٧٠]، كما أن ابن حوقل لم يهتم بتوضيح منابع هَـذه الأنهار، وان كان لم يفُتْه الإشارة الى مصباتها، حيث حدد مصبات بعض تلك الأنهار والوديان في بحـار بلاد المغرب، والأندلس، وصقلية، أي في البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي.

وعـلى أية حـال، فإن هـذا التتبع الـواسـع لـلأنهار والأوديـة في بـلاد المغـرب والأندلس، كان يصب في نطاق اهتمامات ابن حوقل القائمة على تقـديم وصف مفيد لاقتصـاديات بـلاد المغرب والأنـدلس، التي تعتمد في جـانب كبير منهـا على النشـاط الزراعي المرتبط بتلك الأنهار والوديان: ريّاً وسقياً ـ عـلاوة على الشرب ـ ثم تـوضيح حركة الملاحة النهرية أو التنقل النهري، وهو أمر عـرفته بـلاد المغرب والأنـدلس، ولم تخل منه[٧١].

ونختتم الحـديث عن المصـادر المـائيـة، التي كـانت هي الأخـرى مصـدراً من مصادر الري والسقيا ـ بجانب الأنهار والآبـار ـ وبلغت في بلاد المغـرب خاصـة عدداً كبيراً، جهد ابن حوقل في تتبعها، والإشارة إلى أهميتها في الزراعة والشرب[٧٢].

وأخيراً نستطيع أن نختتم حديثنا الانتقائي هذا عن الجغرافيا الطبيعية بما تناوله ابن حـوقل بشـأن مظهـر من مظاهـرها، وهـو التربـة. ولقد تنـاول ابن حوقـل هـذا الموضوع في إشارة أو إشارتين عابرتين. فعند حديثه عن مدينة برقة الليبية قـال عنها: (. . . **وأرضها حمراء خلوقية التربة**[٧٣]). والحقيقة انه إذا كانت كلمة خلوقية، تعني

---

(٧٠) من هؤلاء مثلا القزويني الذي له آراء علمية قيمة حول نشأة الأنهار ـ وكذلك منابعها ـ حسبما لاحظ محمد محمود محمدين: المرجع السابق، ص: ٢٥١ـ٢٥٣.

(٧١) انظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٠، عن وادي سفـدد، حيث الإشارة الى أنـه (وادي كبير، غزير الماء، يحمل المراكب).

(٧٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧ (وتعرف بعين تبودا)، ٨٨.

(٧٣) نفسه، ص: ٦٩.

لغوياً: الشيء الأملس[٧٤]، فإن وصفه لها بالتربة الحمراء لم يلق تفسيراً منه. وليست ثمة ما يلتقي فيه وصف ابن حوقل مع الوصف العلمي لهذه الظاهرة الجيمورفوجية، إلّا هذا الوصف فحسب. ومن المعلوم أن السبب الذي أدى إلى اطلاق اسم برقة الحمراء على المدينة ـ وعلى التربة بالضرورة ـ هو نتيجة لما تحمله الأودية المنحدرة من الجبل الأخضر، صوب سهل بني غازي الساحلي من تربة طينية حمراء، غطت مساحات كبيرة من المدينة[٧٥].

ويقول عن مدينة لبدة: (.. **وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر، خصبة**[٧٦]). ويمكن أن يلتقي هذا الوصف، رغم غموضه، مع ماتميزت به منطقة طرابلس من السبخات الملحة المتكونة من مفتتات الرمال والمجاري المائية، فأضافت إلى التربة الرملية، تربة رسوبية، يمكن وصفها بأنها تربة جيرية رملية[٧٧].

---

(٧٤) انظر ابن منظور: المصدر السابق، ج١٠، ص٨٩.

(٧٥) يسري الجوهري: جغرافية المغرب العربي، ص: ٢٧٠. وانظر تعريف التربة الحمراء العلمي عند يوسف التوني: نفسه، ص: ١١١.

(٧٦) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧١.

(٧٧) انظر فيليب رفلة وزميله: جغرافية الوطن العربي، دراسة طبيعية اقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٧١م، ص: ١٨٩-١٩٠.

نماذج من الجغرافيا الحيوية عند ابن حوقل

إذا كانت الإشارات عن الجغرافيا الطبيعية للجناح الغربي للدولة الاسلامية عند ابن حوقل تبدو قليلة غير واضحة المعالم، فإن الإشارات المتعلقة بالجغرافية الحيوية ليست بأحسن حالاً منها. وعلى الرغم من أن ابن حوقل ردَّد كثيراً في مادته للجناح الغربي ألفاظ: المراعي، الماشية، السوائم أو السائمة(٧٨)، إلاّ أننا عبثاً نطلب تصوراً جغرافياً يوضِّح أو ينمّ عن إدراك للصلة بين المملكة النباتية والحيوانية باعتبار أن الجغرافية الحيوية العضوية أو أنها الدراسة الجغرافية للطبيعة الحيَّة. وهكذا، فلم نعثر على ما يشير إلى إدراك الصلة بين مملكتي النبات والحيوان كما قلنا، وبين ظروف البيئة(٧٩)، أو العلاقة بين الأشجار الطبيعية والحركة المناخية(٨٠)، ومدى تأثير الشمس في نمو النبات الطبيعي(٨١) وكمية الأمطار وحجمها: قلةً أو كثرةً. وبالطبع فقد انعدمت الإشارات كذلك إلى تحديد أنواع النبات، في ظل انعدام الحديث عن النباتات نفسها أو الغابات الطبيعية.

وهكذا فقد خلت المادة التي كتبها، بل نقول حرمتنا المادة التي كتبها من أن نتبين في بلاد المغرب الأقصى مثلاً أي إشارة الى النباتات الألبية كالنعناع والخزامى،

---

(٧٨) انظر أمثلة لذلك في صفحات عديدة من كتابه، مثل، ص: ٧٠، ٧١، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٥، ١٠٠، ١١٠.

(٧٩) انظر محمد محمود محمدين: نفسه، ص: ٢٦٤.

(٨٠) انظر محمد محمود محمدين: نفسه، ص: ٢٧٣.

(٨١) محمد محمود محمدين: نفسه، ص: ٦٧، حيث أظهر جهود القزويني في كتابه آثار البلاد وأخبار العباد، في هذا الصدد كمثل على الجغرافيين المسلمين الذين تناولوا هذا الموضوع.

وهي نباتات المرتفعات العالية كما هو معروف، حيث توجد سلسلة أطلس العليا أو الكبرى. كما خلت مادته كذلك من تبين تأثير المجاري المائية في نمو حشائش الصفاف والطرفاء والآس. وعلى الرغم من أنه تكلم عن الهضاب، إلا أنه لم يتحدث عن الأعشاب كالحلفا والغابات في مرتفعات الريف وجبال أطلس العليا، ولم نجد أي إشارة تدل على ذكر أسماء الأشجار الطبيعية، كالأرز والبلوط الفليني، والزان، وشجيرات الصنوبر، والسرو الأبرية، وهي التي توجد على المرتفعات العليا. وقل نفس الشيء عن العرعر والسندرس، والكافور.

وبالجملة فلم نجد أية إشارة الى المملكة النباتية، سوى الإشارة الى المراعي بصيغة تعميمية. وفيما يتصل بالمملكة الحيوانية، فعلى الرغم من كثرة الحديث عن الماشية والسائمة، إلّا أننا لم نجد مثلاً حديثاً يركز على إدراك أو بصيرة جغرافية تربط بين كثافة عددها، وتوزيع النبات الطبيعي الجغرافي، أو التوزيع الجغرافي للنبات[٨٢]، كما أن من الملاحظ أن حديث ابن حوقل عن الماشية، إنما انصب على الحيوان المستأنس، وهي الأغنام، والماعز، والجمال، والأبقار، ولم نجد أية إشارات أو ذكر للحيوانات العشبية، مثل: الأرنب، والغزال، فضلاً عن إغفال الإشارة الى الحيوانات آكلة اللحوم، كالفهد والذئب[٨٣].

وعلى كل حال ينبغي علينا أن نلتمس العذر لابن حوقل، فلقد انصبت اهتماماته الجغرافية في رحلاته لبلاد المغرب نحو الجغرافية البشرية بمفهومها الواسع الذي يضم الجغرافيا الاقتصادية، مع الاهتمام بالجغرافيا الإدارية.

---

(٨٢) راجع: فيليب رفلة وزميله: جغرافية الوطن العربي، ص: ١٢٩ وما بعدها، وص: ١٥١، ١٧٤، ١٧٨، ١٩٣، ١٩٤ ـ يسري الجوهري: المرجع السابق، ص: ١٦٦، ١٦٧، ١٩٨، ٢٨٠، ٢٨١.

(٨٣) انظر فيليب رفلة: نفسه، ص: ١٥٢.

ومهما يكن من أمر، فلنتابع ابن حوقل في نماذج للجغرافية الحيوية، أوردها في مادته للجناح الغربي للدولة، توضح فهمه لهذا الموضوع. نصادف كثيراً عبارات دالة على المملكة النباتية، مثل: العشب[٨٤]، المراعي المنتجة[٨٥]، الأشجار[٨٦]، وبالطبع بدون تحديد لما يقصده منها. وثمة إشارات عديدة، قد تكون لها بعض من الأهمية. ففي حديثه عن مدينة سرت الليبية، يقول: **(ولهم مزارع في نفس البر، تُقصد نواحيها إذا مطرت، وتنتج مراعيها[٨٧])**.

وغير مفهوم في الحقيقة، ماذا يقصد ابن حوقل بهذه العبارة التي يتحدث فيها عن مدينة سرت كذلك، إذ يقول: **(ولحوم المعز أغذى فيها من الضأن وأنفع، وتقوم لحوم الضأن فيها مقام لحم المعز بعدها، لأنها غير ملائمة لأهلها، وللسّافرة المجتازين من أجل مراعيها[٨٨])**. والجملة الأخيرة مهمة فهل تراه يتحدث عن مراعٍ ذات خصوصية نباتية للمعز؟ ربما يكون قد قصد ذلك. وفي حديثه عن مدينة بونة يشير إلى وجود مراعٍ للخيل السائمة للنتاج[٨٩].

وأخيراً نجد إشارة عامة، وهو يختتم حديثه عن صادرات بلاد المغرب إلى الأقطار الإسلامية، سواء كانت أقطار بلاد الأندلس، أو بلاد السودان الغربي، أو المشرق، فيركز على أن ماشية البقر، هي أولى المواشي تصديراً، ثم الجمال، ثم الأغنام والماعز[٩٠].

---

(٨٤) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٠.
(٨٥) نفسه، ص: ٧٠، ٧١.
(٨٦) نفسه، ص: ٧٧.
(٨٧) نفسه، ص: ٧٠.
(٨٨) نفسه، ص: ٧١.
(٨٩) نفسه، ص: ٧٧.
(٩٠) نفسه، ص: ٩٥.

نماذج من جغرافية الأجناس البشرية
أو جغرافية السلالات البشرية

نود أن ننبه هنا إلى أن مادة هذا الفرع من الجغرافية قليلة يسيرة، لا تتجاوز الإشارة إلى أصل البربر، ثم إشارة اخرى إلى تأثير البيئة في اكتساب صفات جثمانية معينة، حسبما سنعرف بعد قليل.

وعلى أية حال فبخصوص القضية الاولى، وهي أصل البربر، نجد الإشارة اليهم كفئة أو عنصر سكاني غالب في بلاد المغرب، كما أنه يتميَّز بحضور مهني فاعل نشط، ولقد جاء ذلك في معظم صفحات مادة المغرب، إلى الدرجة التي لا يكاد حديثه عن مدينة من مدن المغارب الثلاثة: الأدنى[٩١]، والأوسط[٩٢]، والأقصى[٩٣]، يخلو من الإشارة إلى البربر، بنفس التسمية، وأحياناً يميل إلى التصريح بذكر أسماء بعض تلك القبائل[٩٤].

ولا يكاد ينتهي من اختتام رسم صورة المغرب بأحواله الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية والادارية، حتى نراه يشير الى أصل البربر حسبما رآها ويقدمها لنا كقضية محسومة إلى الدرجة التي لم يحتج معها إلى أية مناقشة. وهكذا نراه يقول: (والبربر

---

(٩١) عن بربر المغرب الأدنى، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥.

(٩٢) عن بربر المغرب الأوسط، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٧.

(٩٣) عن بربر المغرب الأقصى، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ٩٥.

(٩٤) مثل قوله عن بربر وهران، أنهم من قبيلة يزاجة. وكذلك عن مدينة مليلة التي يسكنها بطن من بني بطوية. ومدينة المسيلة، وعليها من البربر: بنو برزال، وبنو زنداج، وهوارة مزاتة. وتاهرت بها بربر من كتامة. وقسطيلية ونقطة بهما بربر من قبيلة زناتة ومزانة. إلى غير ذلك أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٩، ٨٥، ٩٣.

السكان بالمغرب قبائل لا يلحق عددهم، ولا يوقف على آخرهم لكثرة بطونهم، وتشعب أفخاذهم، وقبائلهم، وتوغلهم في البراري، وتبددهم في الصحارى. وجميعهم من ولد جالوت إلّا اليسير منهم[٩٥]). ثم نراه بعد ذلك يعود الى تأكيد هذا القول عندما شرع يعدِّد أسماء القبائل البربرية التي ناهزت مائتي قبيلة، فيقول إن أبوة جالوت تجمعهم جميعهم[٩٦].

والإشارة إلى أنهم من ولد جالوت تضعنا أمام قضية سلالية أو اثنولوجية، وهي قضية أصل البربر، وهي القضية التي تحدث عنها المؤرخون القدامى والمحدثون: عرباً وأجانب، ولم يستطع البحث العلمي حسمها حتى الآن.

فابن حوقل هنا بتأكيده على أبوة جالوت للبربر، يلتقي مع عدد من المؤرخين العرب المسلمين والكتاب الأوائل من أمثال ابن الكلبي والطبري والمسعودي والبكري وابن سعيد وغيرهم، من الذين يذهبون هذا المذهب، وهو الرأي الذي لا يقره ابن خلدون، الذي يرى أن البربر من أبناء كنعان بن حام بن نوح ـ حسب تقسيمه للشعوب، وأنهم أقارب للفلسطينيين، وليسوا منهم، وهناك من يقول إنهم، أي البربر، من أصل يمني نسبة الى النعمان بن حمير بن سبأ[٩٧].

---

(٩٥) نفسه، ص: ٩٧.

(٩٦) نفسه، ص: ١٠٠.

(٩٧) عن هذه الأقوال، راجع ما ناقشه سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج١ ص: ٨١ـ٨٥ مع الحواشي. وكذلك ما يذهب اليه البحث العلمي بشيء من التحفظ وبقول توفيقي إن البربر من أصول سامية، حامية، مصرية إيجية، اجتمعت في بلاد المغرب في فترات من التاريخ، وكوَّنت الشعب البربري، أنظر على وجه الخصوص الصفحات ٨٢، ٨٥. ومن الملاحظ أن الباحثين المغاربة المحدثين يميلون إلى أن البربر والعرب من أرومة واحدة، أي الأصل السامي، ولذلك فالقول إنهم أي البربر من العرب، قول لا يجافي الحقيقة، أنظر مثلاً، عبد العزيز بن عبد الله: تاريخ الحضارة المغربية، منشورات دار السلمي للتأليف والترجمة والنشر والطباعة والتوزيع، ثلاثة أجزاء، الجزء الأول، ١٩٦٣م، ص: ٢٣، ٣١.

ونتقل الآن إلى القضية الجنسية أو السلالية الأخرى التي تطرق اليها ابن حوقل. ففي معرض سرده لقبائل المغرب، توقف عند قبيلة: تاغماك البربرية، فنراه يقول عنها ما نصه حرفياً: (. . . **فيقال إن أصلهم سودان ابيضت أبشارهم وألوانهم، لقربهم إلى الشمال، وبعدهم عن أرض كوكو**[٩٨]، **وهم لأمهاتهم من ولد حام**). وفي موضع آخر، يقول: (. . . **إن البيضان ـ وهو هنا ناقل فحسب ـ إذا تناسلوا في بلد السودان، سبعة أبطن، عادوا في سحنتهم وبسوادهم. وإذا توالد السودان ـ نقلاً لرأي الكندي كذلك ـ في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا في صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء**).

والحقيقة أن ابن حوقل، وهو يروي هذه الأقوال لا نجده متحمساً لها بدليل أنه بدأ حديثه عن هذه القضية بعبارة التضعيف: «فيقال»، ثم لا يكتفي بهذا، بل يعقب على رواية الكندي التي ذكرها، وروينا نتفاً منها، يعقب بقوله: (**وليس بمثل هذه الدعوة يتكلم على الأنساب**[٩٩]).

إننا نجد أنفسنا هنا أمام قضية من قضايا علم الأنثروبولوجيا، وهي: أثر المناخ في صفات الإنسان. ويخيل إلينا أن ابن حوقل كان مطّلِعاً على الجوِّ الثقافي المحيط بهذه القضية، والذي مال إليه نفر من مثقفي عصره من المؤرخين والجغرافيين ـ نذكر منهم على سبيل المثال: المسعودي[١٠٠] ـ، الذين رأوا أن الحرارة والبرودة تؤثران في

---

(٩٨) أرض كوكو، هي دولة سنغى القديمة التي قامت في السودان الغربي أو غربي افريقية وهي غير دولة سنغى الإسلامية، وتقع على نهر النيجر. أنظر محمد عبد الله محمد النقيرة: التأثير الإسلامي في غربي افريقية، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ ص: ٢٩.

(٩٩) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠١.

(١٠٠) راجع محمد محمود محمدين: نفسه، ص: ٢٦٣، حيث يناقش المسعودي وابن خلدون كذلك مناقشة جيدة.

تغيير لون البشرة، وأن هـذا التغيير أو التشكيـل للبشرة يتصاعـد تبعاً لارتفـاع درجة الحرارة أو البرودة. وهذه القضية كـما هو معلوم، قـد تناولتهـا المؤلفات التي تضمنت الحديث عن علمي الأنثروبولوجيا[١٠١]، وكذلك علم الأثنولوجيا ونستطيع القول إن هـذين العلمين لا ينكـران الأثر الـذي يحدثـه المُنـاخ في تشكيـل الصفـات الجثـمانيـة للإنسان، ولكن بالطبـع دون الوقـوف عند قضيتي المـزاج والحركـة اللتين قـد ذهبت إليهما مدرسة الحتم أو الجبر البيئي، والتي توارت حديثا، لعدم وجاهتها[١٠٢].

وعلى أية حال، فإن مما يلحق بموضوع البربر هنا، هو القول بأن ابن حوقـل قد طوَّق عنق المعرفة بذلك الثبت الإحصائي الدقيق لقبائـل البربـر، والذي بلغ حـوالي مائتي قبيلة، ولعله من أدق وأتم الثبوتيات عن البربر، بجانب ما جاء في موسوعة ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.

---

(١٠١) انظر على سبيل المثال أحد هذه الكتب، وهـو كتاب عبـد العليم عبد الـرحمن خضر: أصل الأجناس البشرية بـين العلم والقرآن الكـريم، منشورات مؤسسـة تهامـة، سلسلة الكتاب الجامعي رقـم ٣٣، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، ص: ٩٧ـ وما بعدها.

(١٠٢) عن نظرية الحتم أو الجبر الجغرافي وتطور مدرسته، تم نقدها من قبل العلماء. أنـظر صلاح الدين الشامي: الفكر الجغرافي، الفصل الرابع، والخاتمة.

نماذج للجغرافيا الإقتصادية في الجناح الغربي للدولة الاسلامية

نجح ابن حوقل في تقديم، أو رسم صورة جيدة لجـوانب النشاط الإقتصـادي لهـذه المنطقـة من العالم الإسـلامي. ولقد وجـدنا أنفسنـا أمام مـادة غزيـرة، شملت جوانب الحياة الإقتصـادية. فمن الحـديث عن المدن وخصـائصها، إلى الحـديث عن الطرق التجاريـة وطرق المـواصلات، إلى الحـديث عن الصلات التجـارية بـين بلاد الأنـدلس والمغرب، وبـين المغرب وبـلاد السودان الغـربي من جهـة، وبـين المغـرب والأندلس من جهة اخرى.

كل ذلك جنباً إلى جنب مع العرض التفصيلي للغلات الزراعية وأنواعهـا، ثم الأنشطة التجارية والصناعية، ثم أخيراً الثروتين السمكية والمعدنية.

النشاط الزراعي:

لاندري لِمَ لَمْ يستعمل ابن حوقل هنا حاسـتّـه الجغرافيـة في توضيـح معالم هـذا النشاط، وتناوله بالدقة العلمية المطلوبة؟. وإذا كان طبيعياً أن تمر المادة الجغرافية عند الرحالة: عرضاً ودون قصد، لأنه لم يقصدها لذاتها كما سبق أن ذكرنا، فـإن الجغرافي الرحالة ـ وابن حوقل ممثل بارز لها ـ يجب أن يكون على النقيض من ذلك، وبالتـالي: (فيتحكم في طبيعة المادة المعطاة عن كل إقليم)[١٠٣]. نقول ذلك، لنصـل إلى القول بأنه على الرغم من التقصيِّ الواسع للغلات الزراعية وأماكنها عند ابن حوقل، إلاَّ أنه

---

(١٠٣) عبـد الله يوسف الغنيم: مصـادر البكـري ومنهجـه الجغـرافي، منشـورات دار السـلاسـل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص: ١٨٧.

لم يبدُ منه أي تفسير لتكاثـر تلك الغلات في مكـان أو منطقـة معينة من أقـطار الجناح الغربي. فلم يفسر لنا مثلاً أسباب تكاثر القمح والشعير في مناطق محددة من المغرب، لتوفر دواعي زراعته، حيث التربة الطينية الثقيلة، وسيادة مُناخ البحر المتوسط، وتأثير وجود جبال الأطلسي، وكمية الأمطار السـاقطة عليهـا، ثم بما تشكّله الثلوج الـذائبة من خزانات للمجاري المائية[١٠٤]. وهذا الذي يفسر لنا سبب تكاثر القمـح والشعير في المغربين الأوسط والأقصى بكثافة ملحوظة أكثر من تونس، وبالطبع ليبيا. صحيـح أن ابن حـوقل أوضـح لنا غنى المغـربين الأوسط والأقصى بمـدنهما وقـراهمـا بـالقمـح والشعير، بحيث لم يخل حديثه عن مـدينة أو قـرية فيهـما دون الإشارة إليهـما، لكنه لم يوضِّح ذلك أو ينص على ذلك صراحة، أي أنـه لم ينص على أن القمـح والشعير من الغلات التي تعتمد على الأمطار الساقطة في فصل الشتاء بدرجة أسـاسية، وهـو أحد مميزات نطاق إقليم البحر المتوسط، الذي يؤكِّد الجغـرافيون المحـدثون أنـه واحد من ثـلاثة أنـواع من المحاصيـل، أعني بذلـك المحاصيـل التي تعتمد عـلى مياه الأمـطار الساقطة في الشتاء وتتمثل في القمح والشعير بصفة خاصة.[١٠٥].

وحتى عنـدما أشـار إلى أن القمح والشعـير يقلّان، وأحيـاناً ينعـدمان في إقليم الصحـاري الحارة، أي في نـطاق الإقليم السوداني الـذي يمتد جنـوب الصحـراء، أو منطقة مـا وراء أودغست وسجلماسة.[١٠٦]، التي لم يـر أهلها من الـبربر: (**الـبرُّ ولا الشعـير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمـع بهما إلّا بـالمثل**[١٠٧]) كـما قال هـو، دون أن

---

(١٠٤) محمـد عبد الغني سعـودي: افريقيـة ـ دراسة شخصيـة الأقاليم، منشـورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص: ١١٧ـ١١٨، ١٤١، ١٥٤.

(١٠٥) انظر يسري الجوهري: المرجع السابق، ص: ١٦ـ١٧.

(١٠٦) سجلماسـة من مدن المغـرب الأقصى، وأودغست من مدن غـربي افريقيـة أو بلاد السـودان الغربي. انظر ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٧٧ـ٢٧٨، ج٣، ص: ١٩٢ـ١٩٣.

(١٠٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٨ وكذلك انظر قبل ص: ٨٤.

يدرك السبب، مع أنه عاد فأكد أن (**من بأدنى سجلماسة والمغرب من البربر، يأكلون البرُّ ويعرفونه والشعير ويزرعونه**[١٠٨]). والخلاصة أن ابن حوقل لم يربط في حديثه عن القمح والشعير ـ بل ولا غيرهما من المحاصيل ـ بينهما وبين المناخ، مثلما فعل جغرافيون آخرون[١٠٩]. وهكذا لم نجد عنده تفسيراً لسبب تكاثر الزيتون والتين في بلاد المغرب بالذات، بحكم مميزاته المُناخية، حيث الصيف حار جاف، والشتاء دافىء ممطر، أي خضوعه لنباتات المنطقة المعتدلة الدافئة. والحق أنه ليس مطلوباً من ابن حوقل هذا التوضيح العلمي الحديث، لكن كان عليه على الأقل أن يربط بين هذين المحصولين وبين المناخ، هذا فضلاً عن أنه يستغرب منه عدم الإشارة إلى مايعتمد على الريِّ الدائم أو السنوي من المحاصيل، سواء كانت الكروم أو الزيتون والتين ذاتها، باعتبارهما من المحاصيل التي تتحمل الجفاف.

أما النخيل باعتباره من نباتات الصحاري الحارة، فقد أشار ابن حوقل إلى وجوده في النطاق الصحراوي ـ بما فيه من الواحات ـ ولكن بالطبع دون تفسير سبب ذلك، رغم أننا نعترف أنه ماترك منطقة من هذه المناطق داخل هذا النطاق إلاّ وأشار إليها ووقف كثيراً عند بعض مناطق معينة، فوصف تميُّزها وغِناها الكبير بل وإعتمادها عليه بدرجة أساسية، بل واعتماد بقية من الأقاليم والمدن عليه كما سنعرف بعد قليل.

وعلى كل حال فلنورد الآن نماذج من حديثه عن الحاصلات الزراعية، وعلى رأسها القمح والشعير ثم الزيتون والتين، والكروم والفواكه، وبالطبع النخيل.

أما القمح والشعير فنستطيع متابعة زراعتهما في مدن المغرب الأوسط وكذلك

---

(١٠٨) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٩.

(١٠٩) انظر محمد محمود محمدين: نفسه، ص: ٣٧٠ عن القزويني كمثل لهؤلاء الجغرافيين المسلمين.

في قراه: مرسي الدجاج، برشك، جزائر بني مزغناي، وهران، باغاي، بونة وبها قمح وشعير في أكثر أوديتها كما لاقدر له، على حد قوله، طبنة، المسيلة، قصر الأفريقي، أجر، وغير ذلك(١١٠).

أما في المغرب الأدنى (ليبيا وتونس)، فقد قلَّت إشارات ابن حوقل لأماكن زراعتهما ـ أعني القمح والشعير ـ تبعاً لقلة الأمطار، وهذا مالم يلاحظه كما ذكرنا من قبل. ولذلك فلا نكاد نجد عنده سوى إشارات يسيرة: مثل مدينة باجة، فهي كثيرة القمح والشعير، والأربس وبها الحنطة والشعير أمر عظيم، وطانجنة بها حنطة وشعير. وهذه من مدن تونس أو إفريقية، وأما قسطيلية وهي في عداد إقليم الواحات، فإنه لا يزرع بها من الشعير ولا القمح إلا زرع تافه(١١٢). هذا عن مدن تونس، أما ليبيا، فإن جبل نفوسة في طرابلس وحده الذي جاء ذكره عند ابن حوقل بصدد القمح والشعير بمعنى أدق، فيقول: (.. **وأكثر زروعهم الشعير، وإياه يأكلون**)(١١٣).

على أننا نشعر هنا بأن ابن حوقل، وإن كان لم يشر إلى كثافة أو تعدد أماكن زرع القمح والشعير في المغرب الأدنى، إلَّا أن ذلك لايمكن أن يكون إلَّا قياساً مع الفارق أو قياساً نسبياً، فتونس وليبيا ليستا فقيرتان إلى القمح والشعير إلَّا بالقياس مع المغربين الأوسط والأدنى. ولقد فات ابن حوقل وهو يزور بلاد المغرب إبَّان وجود الخلفاء الفاطميين في المغرب ـ قبل إنتقالهم إلى مصر (سنة ٣٦٢هـ)، ـ أن يلحظ أن مدينة طرابلس في ليبيا مثلاً كانت ترسل القمح والشعير من كثرتها ووفرتهما أو

---

(١١٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٦.

(١١١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٠، ٨١، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩١.

(١١٢) ابن حوقل: نفسه، ص: ٩٢، وانظر ص: ٧٥ حيث إشارة مجملة للحبوب والزيت في مدينة تونس.

(١١٣) نفسه، ص: ٧٧، ٨٦، عن المدن التونسية، وص: ٩٢ عن قسطيلية.

توافرهما في العصر الفاطمي نفسه إلى صقلية، معونة للمجاهدين، وذلك من المزارع التي تقع في سهل وادي سوفجين[١١٤]. وفي تونس انتشرت مزارع القمح كذلك في سهول وادي مجردة[١١٥].

أما الزيتون، وهو غلة إقليم البحر المتوسط، كما هو معروف، والواقع ضمن نباتات المنطقة المعتدلة الدافئة، لم تخل منه بالطبع أقطار المغرب العربي، ونستطيع أن نمضي مع ابن حوقل إلى مدينة قابس وزيتها الشهير، وسفاقس وهي مدينة جل غلاتها: الزيتون والزيت، وبها منه ماليس بغيرها مثله كما ذكر هو نفسه[١٦]، ثم تختفي الإشارات عنه في بقية أقسام بلاد المغرب الأخرى بل وحتى في المغرب الأدنى. وأما التين، فتتوزع مزارعه في عدة مدن من مدن المغرب العربي، منها: طرابلس، حيث يوجد في جبلها، وجزائر بني مزغناي، ومرسي الدجاج، وسوق إبراهيم[١١٧]. ثم أيضاً يكتفي بذلك. ولعل هذا يعد أمراً مستغرباً، فالزيتون أهم غلة في بلاد المغرب العربي بعد القمح والشعير. ولسنا ندري لِمَ هذا التجاهل من ابن حوقل؟.

ولم تحظ الأندلس، ولا صقلية بأية إشارات عن الزيتون والتين فيهما، اللهم إلاَّ ماذكره عن وجوه التين بأشبيلية.[١١٨]

وإذا كان مفهوماً أن يتجاهل صقلية والأندلس قبلها ـ ربما بسبب منهجه

---

(١١٤) صالح مصطفى مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ـ رسالة ماجستير (لم تنشر)، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص: ١٧٠.

(١١٥) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ج٢، ص: ٤٠٩.

(١١٦) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٢ عن قابس، وص: ٧٣ عن سفاقس.

(١١٧) نفسه، ص: ٧٧، ٧٨، ٨٩، ٩٠.

(١١٨) نفسه، ص: ١١٠.

التعميمي - فإنه لايصح أن يتجاهل مدناً في المغرب العربي اشتهرت بزيتونها، مثلما اشتهرت قابس وسفاقس، فهناك لبدة بليبيا، التي انتشرت فيها مزارع[119] الزيتون، وفي بلاد الجريد بتونس، وبلاد الزاب في الجزائر، وغيرها[120].

ويشكّل القطن، غلة مهمة في بلاد المغرب، حسبما شاهد ولاحظ ابن حوقل، وقد اشتهرت به عدداً من المدن منها: مدينة تونس ويحمل منها إلى القيروان، وكذلك مدينة بونة، والبصرة وكرت وماستة، وطبنة والمسيلةفي المغرب الأقصى[121].

وأما الكروم، فقد انتشرت مزارعه في كل بلاد المغرب العربي والأندلس وصقلية، وقد تتبّع ذلك ابن حوقل، في مدن: سرت، وسفاقس، والمسيلة، وتمالته، وكرانطة، وترفانة، وفاس، واكتفى بالإشارة إلى أن الأندلس وفي كل مدنها كانت تنتشر مزارع الكروم، مغ غيره من الغلات أو الفواكه، وأخيراً هناك مدينة بالرمو في صقلية والتي اشتهرت بالكروم والفواكه.[122].

والخوخ من الفواكه المشهورة والتي انتشرت مزارعه في غيرما مدينة من مدن المغرب، مثل بلدة، وفاس[123]، وغيرهما. وشاهد ابن حوقل مزارع عديدة وواسعة للسفرجل، في كل من: برشك، وتنس، والمسيلة، والخضراء، وغير ذلك[124].

---

(١١٩) صالح مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية، الى مصر، صّ: ١٧٥.

(١٢٠) البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص: ٨، ٩، ٥١.

(١٢١) ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٥، ٨٠، ٨١، ٨١، ٨٤، ٨٥.

(١٢٢) عن ذلك، أنظر الصفحات، ص: ٧٠، ٧٢، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ١١٠، ١١٧.

(١٢٣) نفسه، ص: ٧١، ٩٠.

(١٢٤) نفسه، ص: ٧٨، ٨٥، ٨٩.

ومما شاهـده ابن حوقـل، أو لعله نقله: كثرة المنـاحل في بـلاد المغرب بمختلف مـدنه، وهكـذا نجد الإشـارة إلى العسل، في كـل من: باشـوا، بونـة، جـزائـر بني مـزغناي، تـاهرت[١٢٥]. ولم يفت ابن حـوقـل كـذلـك الإشـارة إلى مـزارع قصب السكر، والجوز، والقنب[١٢٦]، وغير ذلك من أنواع الغلات الأخرى.

وأخيراً، فإن النخيـل، وهو الغلة الهـامة بمـا له من قيمـة غذائيـة عاليـة، فقد انتشرت مـزارعه في الـواحات، في كـل من: أوجلة التي تعتـبر ذات نخيـل عـظيمـة وغلات من التمر جسيمة كما قـال هو نفسـه، وجزيـرة ودان لاتقصر في رخص التمر وكثرتها وجودتها عن أوجلة، وسرت مدينة بها نخيل تجتنى أرطابها، والحمة، وقفصة، وأغمات، على أنها كلها لا تلحق بإقليم قسـطيلية (بـلاد الجريـد) التي تتميز بنخيلهـا الكثيف، وهي مغوثة أفريقيا بتمورها، وكذلك في بلاد السرس الأقصى[١٢٧].

النشاط الصناعي:

شدَّ ابن حوقل ـ مثلما شدَّ رصفاؤه من الجغرافيين الرحالة في تنقـلاتهم في العالم الإسلامي ـ الصناعات وأخبارها، وأنواعها، وأنماطها، سواء مـاكان منهـا: أوَّليًّا، أو مـركباً، أو غـير ذلك. وكـان كثيراً مـايحالفهم الصـواب في تحليلهم لتميُّز منـطقة من المناطق بصناعة أو صناعات معينة[١٢٨].

بيد أن هناك قدراً مشتركاً، أو لنقل إهتماماً مشتركاً رئيسياً، يكاد يجمع بينهم،

---

(١٢٥) نفسه، ص: ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٨٥.

(١٢٦) نفسه، ص: ٩٠ (قصب السكر)، ص: ٨٩ (الجوز)، ص: ٧٥، ٩٠ (القنب).

(١٢٧) نفسه، ص: ٧٠، ٩٠، ٩٢، ٩٩.

(١٢٨) راجع مثلاً عن هـذه الاهتـمامـات: محمـد محمـود محمـدين: المـرجـع السـابق، ص: ٣٧٧-٣٨٦.

وهو ذكر صناعة الثياب، أو الملابس بأنواعها المختلفة(١٢٩). وابن حوقل في وصف مشاهداته في بلاد المغرب، وبلاد السودان الغربي، وبلاد الأندلس، وصقلية، رصد لنا صناعات على غاية من الأهمية. وقد استمدَّت معلوماته عنها، أهميتها من كونه غدا مرجعاً لكل من يؤرِّخ لهذا الجانب المادي من الحضارة الإسلامية، حسبما سنعرف بعد قليل. وكيف كان الأمر، فإن من الصناعات التي لاحظها وذكرها بالتالي في كتابه، صناعة الملابس التي اشتهرت بها أكثر من مدينة من مدن المغرب والأندلس، مثل إجدابية ولبدة بليبيا، ذات الأكسية الفاخرة، وقابس بمنسوجاتها الحريرية، ومدينة البصرة المغربية بصناعاتها القطنية وقسطيلية.

أما الأندلس، فقد اشتهرت معظم مدنها بصناعة ثياب الخز والحرير، والديباج، والقز، ولم يفته الإشارة إلى اشتهار الأندلس كذلك بصناعة ثياب من الخز السكب والسفيق المبطن، أو بمعنى أدق المغطى بالشمع، ليمنع المطر من أن يصل إلى لابسه على نحو مشابه اليوم للباس: rain-coat. واشتهرت مدينة بجانة خاصة بأرديتها التي حملت إلى المشرق، وأخيراً، فقد لاحظ اشتهار صقلية بثياب الكتان(١٣٠).

وممَّا لفت نظره ـ دون أن يحاول التعليل أو الربط ـ اشتهار بلدان المغرب خاصة بالصناعات الجلدية والصوفية، والتي تعتمد كما هو معلوم على النتاج الحيواني. وهكذا نراه يتحدث عن اشتهار برقة بالجلود غير المدبوغة، التي تحمل إلى مصر لدبغها. وكذلك اشتهرت قابس بالجلود التي تدبغ بالقَرَظ(١٣١)، وتعم أكثر المغرب،

(١٢٩) أنظر آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص: ٢٣٥ وتفسيره لهذا الإهتمام من قبل الجغرافيين والرحالة المسلمين.

(١٣٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧١، ٧٢، ٨١، ١١٠، ١٢٤.

(١٣١) راجع ابن منظور: المصدر السابق، ج٧، ص: ٤٥٤، حيث يقول: القرظ: شجر يدبغ به.

فتأتي من طيب الرائحة، ونعومة اللمس بمثل حال الأديم الجرشي. ووصفه هذا يعد في الحقيقة مادة أصيلة.

وعلى الرغم من أنه تحدث كثيراً عن صناعة الصوف(١٣٢) إلاَّ أنه لم يُعن بتوضيح نقطة مهمة في هذا الصدد. فهل المقصود: الصناعة الصوفية المتعلقة بالملابس والأكسية، أم صناعة الحصر، والفُرش، والحنابل؟. لا ندري بالضبط، وإن كان قد أشار في موضعين، بل ثلاثة إلى أنه يعني بصناعة الصوف: الموضعين معاً. (١٣٣).

ونختتم حديثنا الإنتقائي هذا من الصناعات التي شاهدها وذكرها ابن حوقل بما ذكره عن صناعة ورق البردي، أو البَرْبير، والذي يعمل منه الطوامير (الصحائف)، وقد قدم لنا معلومة تاريخية غاية في الأهمية، تدل على حال صناعة أدوات الكتابة في إفريقية، أو تونس، وهي البردي، والرق، والكاغد؛ حيث أشار إلى أن صقلية قد غلب عليها هذا البَرْبير، الذي لا يوجد على وجه الأرض نظير له سوى في مصر، وأن أمراء الأغالبة ـ حكام تونس ـ ومن بعدهم الفاطميين كانوا يحتكرون استغلاله، واستعماله في الأعمال الكتابية الحكومية فحسب. هذا بجانب أن أكثره ـ أي البردي، أو البربير ـ كان يفتل حبالاً للمراكب. والحق أن إشارته هذه المبنية على الملاحظة، أو المشاهدة، قد استقبلت بالثناء الكبير عليه من قبل مؤرخي الجانب المادي من الحضارة الإسلامية. (١٣٤).

---

(١٣٢) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٧، ٩٢، ٩٦، ١١٠.

(١٣٣) أنظر نفسه، ص: ٩٢ عن الحنابل التي تصنع في قسطيلية، ص: ١١٠ عن الملابس الصوفية الأندلسية.

(١٣٤) أنظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ط٢، ١٩٧٢م، ٣ أقسام، القسم الثاني، ط٢، ١٩٨٢م، ص: ١٦٠-١٦١، حيث التقدير لابن حوقل ـ وانظر كذلك آدم متز: المرجع السابق، ج٢، ص: ٣٥٦-٣٦٦.

وأخيرا، فابن حوقل شأنه شأن كل جغرافي رحالة ـ بل وغير رحالة ـ لايترك في تدوينه لملاحظاته ومشاهداته في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، الإشارة إلى الثروة المعدنية هناك، على أنه لم يوضح لنا مانوع تشكيلها، أي ما نوع الصناعات التي قامت عليها؟. فلقد تحدث عن معدن الحديد، ووجوده في عدة مدن من مدن المغرب والأندلس، مثل بونة التي يحمل منها إلى الأقطار الغزير الكثير، والإربس ومجانة، ومدن الأندلس. كما أشار إلى معدن المرجان، واشتهار بعض مدن المغرب به، مثل مرسي الخزر (بالجزائر)، وقد كان فيها بكمية لا يوجد في غيرها من كثافته، وكذلك تنس، وسبتة(١٣٥).

أما الأندلس، فقد اشتهرت بمعادن: العنبر، والزيبق، والحديد، والرصاص ومعدن الطفل الجيري. وقد حرمنا ابن حوقل من التعرف على الصناعات التي قامت على تلك الصناعات، وهو أمر لم يفت غيره من الجغرافيين الرحالة، ممن زار بلاد المغرب والأندلس. (١٣٦).

النشاط التجاري :

لعل من الطبيعي جداً أن يكون الحديث عن النشاط التجاري في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، من أغزر الإهتمامات الجغرافية في رحلاته الجغرافية تلك،

---

(١٣٥) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٦، ٧٧، ٧٩ عن معدن المرجان، وص: ٧٧، ٨٤، ٨٦ عن الحديد، وص: ١١١ عن معادن الأندلس.

(١٣٦) أنظر السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص: ٤٠٩-٤١٠، حيث الإشارة إلى الصناعات التي قامت على الثروة المعدنية بالمغرب، ومن أشار إليها من الجغرافيين المسلمين، وكذلك أنظر عن صناعات الأندلس المعدنية، مثلاً: محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي ـ الخامس الهجري ـ الحياة الإقتصادية والإجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، ١٩٩٤م، ص: ١٥٣-١٦٠، حيث الإشارة الواسعة لأقوال الجغرافيين والمؤرخين المسلمين عن ذلك.

بل وتأتي على رأسها. ونقول طبيعياً، إنطلاقاً من نقطتين أساسيتين، أولهما:

١ ـ ما صرح به نفسه في مقدمة كتابه، من كونه تاجراً جوالاً ـ إلى جانب صفة الجغرافي ـ، وهو ما أكّد عليه كل من كتب عنه، وعن كتابه(١٣٧).

٢ ـ التطبيق العملي للمنهج الذي أخذبه نفسه كواحد من ممثلي المدرسة الجغرافية الإسلامية الإقليمية القائم على جعل النشاط الإقتصادي ـ والتجارة في مقدمته ـ حجر الزاوية في مميزاتها التي انطبعت بها، والذي خصصته لمملكة الإسلام وأقاليمها. (١٢٨).

ولذا فليس غريباً أن يولي ابن حوقل النشاط التجاري في هذا الجناح الغربي من الدولة إهتماماً وعناية كبيرة. وعلى الرغم من أننا لم نتبين ـ على الأقل في هذا الجناح ـ، أي أثر لانعكاس مصالحه التجارية في رحلاته، كما قال كراتشكوفسكي في كتابه السابق(١٣٩)، ولا أي أثر كذلك ـ على الأقل هنا أيضاً ـ لما قاله عبد الرحمن حميدة(١٤٠) من أن ابن حوقل، كان منظِّراً لسوق إسلامية مشتركة. أقول على الرغم

---

(١٣٧) لعل الجملة التي عول عليها كل من كتب عن ابن حوقل وعن صفته: تاجراً، هي التي وردت في المقدمة عندما قال حاكياً عن نفسه كيفية تأليفه كتابه: (وأعانني عليه تواصل السفر... مع ماسبق به القدر من استيفاء الرزق والأثر.. الخ). ثم راجع الزركلي: المرجع السابق والجزء، ص: ١١١ ـ عمر رضا كحالة: المرجع السابق والجزء، ص: ٥، حيث صرحا بكونه تاجراً ـ وكذلك راجع كراتشكوفسكي: المرجع السابق، ص: ٢١٦.

(١٣٨) راجع كراتشكوفسكي: ص: ٢٥ ـ ٢٧، الفصل الخامس، ص: ١٦٧ ـ ١٧٥، الفصل السادس، ص: ١٩٠ ـ ٢٠١، الفصل السابع ص: ٢١٤ ـ ٢٣٥، حيث خصائص هذه المدرسة الجغرافية الإقليمية ـ نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ص: ٤٢ ـ ٥٣.

(١٣٩) أنظر، ص: ٢٢٠.

(١٤٠) المرجع السابق، ص: ٢١١

من أننا لم نتبين ذلك، إلاَّ أننا بالمقابل نوافق كل من أكد على ظهور الحس التجاري وشيوعه ليس في جوانب حديثه عن النشاط التجاري في جناح الدولة الغربي، بل وفي حديثه عن مملكة الإسلام بعامة. ولعل هذا يقودنا، وقد وصف بالتاجر الذكي[١٤١]، إلى قضية أخرى، ليس هنا مجال اثباتها أو نفيها، وهي قضية تخفيه ـ أي ابن حوقل ـ تحت ستار التجارة، لتبدو من وراء ذلك مهمته السِّريَّة، وهي الجاسوسية[١٤٢] للفاطميين الذين أقاموا دولتهم في بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ، ثم

---

(١٤١) وجدنا هذا النعت عند حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، القسم الثالث، ص: ٣٠٢، عندما قال عن ابن حوقل مانصه: (ابن حوقل عالم بغدادي زار المغرب والأندلس في القرن الرابع الهجري متقنعاً بمهنة التاجر الذكي).

(١٤٢) قضية الإشارة إلى أن ابن حوقل كان جاسوساً أو داعية للفاطميين ـ أصحاب المغرب ثم مصر وما وراءها بعد ذلك، قضية ما خلت منها أي من المؤلفات التي تحدثت عن ابن حوقل الجغرافي الرحالة، ولعل أول من أطلقها المستشرق الهولندي راينهارت دوزي في كتابه تاريخ مسلمي أسبانيا، وعنه أخذ كغيره من المستشرقين الذين وافقوه على ذلك إعتماداً منهم على ماكان يبديه ابن حوقل في كتابه من ميول فاطمية واضحة، ومن تهوين بشأن الأندلس في ظل بني أمية، وظهور روح العداء لهم في ثنايا كتابه. ولقد أخذ كثير من الكتاب العرب الذين ذكروا ابن حوقل في مصنفاتهم، يشيرون إلى هذه القضية وكأنها قضية مسلَّمة. والحق أننا لم نعثر من خلال القراءة النقدية الفاحصة لمادة الجناح الغربي من الدولة الإسلامية في كتاب ابن حوقل، أي دليل أو نص، يثبت صلته بالفاطميين. وحتى عندما زار المغرب عندما بدأ جولاته السياحية سنة ٣٣١هـ، ودخله، ونص على ذلك في مواطن عدة من كتابه مثل حديثه عن مدينة المهدية التي بناها الخليفة الفاطمي القائم بالله ٣٠٨هـ، قال إنه أدركها سنة ست وثلاثين وملوكها كماة وجيوشها حماة.. الخ. (أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٧٣)، ولقد تتبعت آخر إشارة تدل على بقائه في بلاد المغرب، حتى سنة ٣٦٢هـ عندما رحل المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر، فوجدتها تقف عند سنة ٣٦٠هـ (أنظر، نفسه، ص: ٩٤). ولم أعثر أبداً على أية إشارة مذ دخل ابن حوقل المغرب تدل على أنه اتَّصل بالفاطميين أو أحد من وزرائهم ورجال دولتهم. والخلاصة أنني أكاد أجزم بأن ماذكر من أنه، أي ابن حوقل، كان جاسوساً أو داعية فاطمي، قضية لا يسندها دليل تاريخي.

رحلو إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، تاركين بلاد المغرب تحت حكم أتباعهم الصنهاجيين أو الزيريين، وفي إطار الصراع بين هذه الدولة التي بسطت نفوذها على معظم المغرب العربي، وبين خصومها السياسيين في الأندلس، أعني بذلك الأمويين(١٤٣).

وعلى أية حالة، فالمتتبع للنشاط التجاري، الذي شاهده ابن حوقل، مثل الإشارة إلى المراكز التجارية والبرية والبحرية، إلى الإشارة لصنوف التجارة الصادرة والواردة، إلى الاشارة للتجارة الدولية بين الجناح الغربي للدولة الإسلامية ـ باعتباره ضمن مملكة الإسلام ـ وديار الروم، والفرنجة، والسودان، خارج نطاق العالم الإسلامي. وكذلك حديثه عن طرق المواصلات، والطرق التجارية، أو جغرافية الطرق والنقل يجد القاريء أنه متعدد الاهتمامات. ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن هذه الإهتمامات، كانت قدراً مشتركاً لدى الجغرافيين المسلمين بعامة والجغرافيين الرحالة منهم بخاصة. كما أن من المناسب الإشارة إلى أن حديث ابن حوقل عن التجارة الدولية بين الجناح الغربي للدولة الإسلامية والأقطار التي ذكرناها، يعتبر مادة

وعلى كل حال فكراتشكوفسكي: نفسه، ص: ٢٢١ الذي ينقل عنه الكتاب العرب المتأخرون لايقطع بذلك، بل ويورد المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال صاحب الدراسات الأندلسية المعروف الذي يرى في ابن حوقل مجرد عميل للعباسيين والفاطميين. ولقد رأيت نفيس أحمد: المرجع السابق، ص: ٦٩ يقلل من ذلك ومن أثره، وكذلك فعل صلاح الدين الشامي: نفسه، ص: ٢٤٣.

(١٤٣) عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب، ثم ارتحالها إلى مصر والمشرق، أنظر، ابن حماد (ت ٦٢٨هـ): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، منشورات دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ ـ حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وسورية، وبلاد المغرب، وهو أوسع مؤلف حديث كتب عنهم تقريباً، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨١م. وهناك عدد كبير من المصادر والمراجع. وقد اكتفينا بمؤلفين أحدهما قديم والآخر حديث.

أصيلة اعتمدت عليها الدراسات الحديثة، سواء أكانت جهوداً تأليفيـة عاديـة(١٤٤)، أم جهوداً علمية أكاديمية(١٤٥).

وبعد هذا الإيضاح، فلا بأس من إبراز نماذج لتلك الجوانب التي ركـز عليها. وفي هذا الصدد تنبغي الإشادة بجهوده في تتبع المراكز التجاريـة المغربيـة، سواء تلك المراكز التجـارية البحـرية التي تـأثرت بمـوقعها الجغـرافي، أو تلك المراكـز التجاريـة البرية، التي تأثرت كذلك بموقعها الجغـرافي من أقسام بـلاد المغرب العـربي الثلاثـة: الأدنى، والأوسط، والأقصى(١٤٦). هذا بجانب مافرضته الظروف المنـاخية والبشريـة من تميز مدن بعينها بتجارات محدَّدة دون غيرها في أحيان، وأكـثر من غيرهـا في أحيان أخرى.

وهكذا، وفي اطار جهدنا الإنتقائي، نستطيع أن نتابع ابن حوقـل، وهو يشـير إلى برقة بقوله: (.. **وبها من التجار، وكثرة الغرباء في كل وقت مالا ينقطع، طـلاباً**

---

(١٤٤) أنظر مثلاً حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافـة العربيـة في أفريقيـة، منشورات دار الفكـر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٦م، الباب الثالث حيث يعتمد عـلى ابن حوقـل في الحديث عن التجارة بين بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب ـ محمد عبد الله النقيرة: التأثـير الإسلامي في غربي إفريقية، الفصل الأول ـ آدم متز: المرجع السـابق: ج٢، ص: ٣١٧، ٣٧٤، ٣٧٩ ـ كراتشكوفسكي: نفسه، ص: ٢١٩ ـ ٢٢٢.

(١٤٥) هنـاك رسالتـان علميتان تـوضحان مـدى اعتمادهمـا على المـادة التي كتبها ابن حـوقل بهـذا الصدد.

انظر عبد العزيز الفيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأنـدلس ودول المغرب، رسالة ماجستير، وقد طبعت بعنـاية المؤسسـة الوطنيـة للكتاب، ط٢، ١٩٨٣م، ص: ٩٦ ـ ١٣٠ ـ الشيخ الأمين عـوض الله: العلاقـات بين المغـرب الأقصى والسـودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتـين مالي وسنغي. رسـالة مـاجستير من جـامعة الامـام محمـد بن سعـود الإسـلاميـة، (طبعت) منشـورات دار المجمـع العـلمي، جـدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الفصل الثالث، العلاقات الإقتصادية ص: ١٢٥ ـ ١٧٣.

(١٤٦) أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٩٦، وغير ذلك.

لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين ومشرقين، وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران والجلود المجلوبة للدباغ بمصر، والتمور الواصلة إليها. . . وضروب المتاجر الصادرة من المشرق، والواردة من المغرب). وهناك مدينة سرت التي تمر بها القوافل المجتازة ـ إلى بقية بلاد المغرب بالطبع ـ. . . و **(ترد إليها المراكب بالمتاع، وتصدر عنها بشيء منه. . الخ)**.

أما تنس، فهي: (أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم، ويقصدونها بمتاجرهم، وينهضون منها إلى ماسواها). [(١٤٧)].

أما المراكز التجارية الداخلية أو الصحراوية الأشهر على الإطلاق في بلاد المغرب، فهما دون شك سجلماسة، التي تعد بمثابة بوابة بلاد السودان، ثم أودغست. هاتان المدينتان ـ المركزان ـ اللتان استمدتا أهميتهما لا من صلة سكانهما العرقية ببلاد السودان الغربي فقط، بل لتحكمهما، ولا سيما سجلماسة في التجارة الأشهر والأغلى بين بلاد المغرب وبلاد السودان من جهة، وبين بلاد الأندلس ـ عبر المغرب ـ وبلاد السودان من جهة اخرى. ونعني بالتجارة الأشهر والأغلى: تجارة معدن الملح الجبلي الذي كانت حاجة بلاد السودان الغربي له مجالاً واسعاً لدراسات وبحوث علمية جادة، والتي وضح لها الأهمية القصوى لهذا الملح، الذي كاد بل زاد عن أهمية الذهب لدى أهل السودان، هذا المعدن الذي كانت بلاد المغرب تقدمه، وتسيطر على مناجمه طيلة ألف عام. والمعدن الآخر، معدن التبر أو الذهب، الذي كانت بلاد السودان تقايضه بالملح مع بلاد المغرب، هذا الى جانب مبادلات تجارية أخرى عبر سجلماسة وأودغست، كالنحاس والعبيد والحلي وغير ذلك[(١٤٨)].

---

(١٤٧) ابن حوقل: نفسه، ص: ٦٩ (بقة)، ٧١ (سرت)، ٧٨ (تنس)، ٧٨ (مرسي موسى).

(١٤٨) أنظر حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، ص: ٦٩ ـ الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، ص: ١٢٩ ـ ١٣١، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٨.

والحق أن مادة ابن حوقل هنا أصيلة، فما من أحد تعرض لذلك، إلاّ واعتمد عليه، وعلى وصفه لهذين المركزين التجاريين، والمراكز التي ترتبط بها شمالاً وجنوباً بين المغرب، والسودان الغربي.

ولنختتم حديثنا عن التجارة والنشاط التجاري بالإيجاز الذي اختصر به ابن حوقل قضايا وشجون ذلك النشاط، ثم إلى إشارة تتصل بسلعة تجارية أندلسية لها دلالاتها التاريخية، وهي تجارة الرقيق الصقالبة، وأخيراً لمحة عن طرق المواصلات والطرق التجارية بين أقسام المغارب الثلاث، وبينها وبين بلاد السودان الغربي.

أما الموضوع الأول، فقد قال عنه: (**فأما ما يجهز من المغرب الى المشرق، فالمولدات الحسان الروقة. . والغلمان الروقة الروم، والعنبر، والحرير، والأكسية الصوف الرفيعة والدنية الى جباب الصوف وما يعمل منه، والأنطاع، والحديد، والرصاص، والزيبق، والخدم المجلوبون من بلاد السودان، والخدم المجلوبون من بلاد الصقالبة على الأندلس**[١٤٩]).

وأما الموضوع الآخر، فهو الموضوع الذي شاهده وأكد عليه، وعلى معرفته الجيدة به، نعني بذلك تجارة الرقيق الأوروبي الذين أطلق عليهم الصقالبة، وهي التجارة التي احتلت أخبارها حيزاً واسعاً في كتابات الجغرافيين المسلمين الرحالة لبلاد الأندلس، والتي أبرزت دور الأندلس التجاري في هذه المبادلة التي كان مدارها المكاني بلاد بلغاريا العظمى أو الكبرى، كما عرفها به الجغرافيون المسلمون، والتي يقوم بها وسطاء منقطعون لها ليس في الأندلس، فحسب، بل في جميع بلدان البحر المتوسط. ولنستمع الى ابن حوقل، يقول عن الأندلس: (**. . ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري، والغلمان الروقة من سبى افرنجة وجليقية، والخدم الصقالبة ـ**

---

(١٤٩) ابن حوقل: نفسه، ص ٩٤ ـ ٩٥.

وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان، فمن جلب الأندلس، لأنهم عند قربهم منها يخصون، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود(١٥٠).

وأخيراً، ففيما يتصل بجغرافية الطرق والنقل، فبوسعنا القول إن ابن حوقل، وهو الذي وقف، وشاهد، ولاحظ، لم يقصِّر في هذا الجانب. فلقد تتبع تلك الطرق الممتدة بين أقطار المغرب العربي بأقسامه شرقاً وغرباً، وبينه وبين بلاد السودان الغربي جنوباً. ورسم لوحة تكاد تنطق في وضوحها لتلك الطرق. ولقد تفاوتت تلك الطرق: أهمية واتساعاً، وتعدَّدت وكذلك صفاتها. فمن طرق محلية قصيرة في داخل القسم نفسه، كالذي بين مدن المغرب الأوسط ـ الجزائر ـ، والطريق العام الرئيسي الطويل الممتد من المغرب الأدنى، الى المغرب الأقصى، أي من افريقية، حتى فاس، ماراً بمدن رئيسية هامة كالقيروان، وباغاي، وقسطنطينة، وميلة، و. . و. . حتى فاس. ثم طريق بين المغرب الأدنى والأوسط، غير ذلك، وهو الذي بين القيروان والمسيلة، يمر بعدة مدن هامة كالأربس، قصر الأفريقي، وأشير.

وهناك الطريق بين المغرب الأقصى والأوسط، أي بين فاس ـ المسيلة، وقد جاء به ابن حوقل معكوساً على حد قوله، وتقع عليه عدد من المدن الهامة، مثل: كرماطة، ممر جبل تازا، تاهرت، شلف، و. . و. . حتى المسيلة(١٥١).

على أن أكبر ما أسدته مشاهدات ونُقول ابن حوقل، هو وصفه للطرق التجارية الصحراوية بين أقطار المغرب العربي، والمراكز التجارية المشهورة بـ: سجلماسة وأودغست تحديداً، وبين بلاد السودان، حيث تجارة الملح والذهب،

---

(١٥٠) ابن حوقل: نفسه، ص: ١٠٥ ـ ١٠٦، ثم أنظر كذلك المادة المهمة جداً عن الصقالبة وديارهم ونشأتهم، التي كتبها أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص: ١٩٧ ـ ١٩٩.

(١٥١) عن هذه الطرق والمسافات بينها، أنظر ابن حوقل: نفسه، ص: ٨٤ ـ ٩٢.

والعبيد، والنحاس، وغير ذلك، كما قلنا سابقاً. هذه الطرق الصحراوية، والتي اشتهر منها: اثنان: الأول من سجلماسة ـ أاودغست ـ غانة في بلاد السودان ثم يتفرع منه عدة طرق ككوغة وسامة، و. . . و. . . ، حتى المغرب الأدنى. والطريق الثاني من أودغست الى المغرب الأدنى، ماراً بمدن سجلماسة، ولمطه، و. . و. . والقيروان، وقسطيلية أخيراً(١٥٢). والحقيقة أنه ما من دراسة لانتشار الإسلام في غربي إفريقية والطرق البرية التي انتشر عبرها إلاّ وتعتمد على مشاهدات ونقولات ابن حوقل، فتشير إليها(١٥٣)، وبالطبع مع الإشارة إلى غير ذلك من المصادر.

---

(١٥٢) عن هذين الطريقين تحديداً، أنظر، ابن حوقل: نفسه: ٨٩ ـ ٩٠، ٩١ ـ ٩٢.

(١٥٣) أنظر قبل، الحاشية، رقم ١٤٤.

نماذج من الجغرافيا البشرية

كنا قد أتينا بتعريف الجغرافيا البشرية، وعرفنا أنها إحدى أقسام الجغرافيا الرئيسية، وأنها تضم عدة فروع منها: الجغرافيا الاقتصادية، والجغرافيا الاجتماعية، والجغرافيا السياسية، والجغرافيا الطبية، وما إليها. وفي الحق فإن الجوانب التي تنضوي تحت الجغرافيا البشرية، كما عرَّفها معجم المصطلحات الجغرافية[١٥٤]، جوانب كثيرة، ومتعددة تعدداً لا نستطيع أن نتتبعها جميعاً هنا. هذا شيء، والشيء الثاني أننا تحدثنا عن الجغرافيا الاقتصادية، أغزر جوانب الجغرافيا البشرية على الإطلاق، وأكثرها أصالة جغرافية. والشيء الثالث أنه يبدو لنا أن الفروع التي تنضوي تحتها الجغرافية البشرية ـ عدا الجغرافية الاقتصادية، وبدرجة أقل الجغرافية السياسية ـ ليست حقلاً معرفياً جغرافياً أصيلاً، بل لعلها أقرب إلى علوم أخرى، مثل علم التاريخ والنظم الإسلامية، وعلم الإجتماع، وعلم الطب، والإدارة والإقتصاد، وأدب الرحلة. أقول أقرب إلى هذه العلوم منها إلى علم الجغرافيا.

لهذه الاعتبارات من نحو، ولأن البحث مخصص للحديث عن الرحلات الجغرافية لابن حوقل في الجناح الغربي للدولة الاسلامية من نحو آخر، ذهبنا ـ ولسنا ندري إذا كان ذلك صواباً أم لا ؟ ـ الى عدم الوقوف عند جوانب الجغرافيا البشرية في رحلات ابن حوقل طويلاً، ولا سيما ما يتصل منها بتلك العلوم التي ذكرناها سابقاً.

وحيث قد وصلنا لهذا التوضيح، فلا بد من التذكير مرة اخرى بالإتجاهين اللذين ظهرا في مادة الرحلة الجغرافية للجناح الغربي للدولة الاسلامية لدى ابن

---

(١٥٤) أنظر قبل، الحاشية، رقم: ٥١.

حوقل، وهما اللذان سارا جنباً الى جنب، أي الاتجاهات الجغرافية الاقتصادية، والحيوية، والطبيعية، والجنسية، ثم الجغرافيا الإدارية، وقضايا أدب الرحلة المتعددة المناحي، سواء كان ذلك فيما يتصل بالإنطباعات، أو الملاحظات المباشرة، أو المواقف التي مر بها الرحالة، وآرائه السياسية، والمذهبية، أو غير ذلك، مما يدخل في إطار أدب الرحلة كما ذكرنا(١٥٥).

أما الإتجاه الأول، فقد استعرضناه مع ابن حوقل بالصورة التي مرت بنا سابقاً. وأما الإتجاه الآخر، فنحن وإن كنا لن نقف عنده، إلاّ أن هذا لا يمنع من الإشارة الى جهد ابن حوقل فيه، وإبراز صفة الرحالة عنده. والحق أن مادة أدب الرحلة عند ابن حوقل قد تعددت وتنوعت، فمن الحديث عن الخراج والجبايات، أو الموارد المالية(١٥٦) للجناح الغربي للدولة الإسلامية، إلى القراءة التاريخية أو السرد التاريخي لحوادث سياسية معينة في المغرب والأندلس(١٥٧)، إلى القراءة أو السرد التاريخي للصراع المذهبي بين المذاهب الفقهية، والمذاهب السياسية الدينية في المغرب(١٥٨)، إلى الآراء السياسية والميول المذهبية عنده(١٥٩)، إلى ذكر لبعض

---

(١٥٥) أنظر قبل، ص: ٣، ٥، ٩.

(١٥٦) لا يمكن حصر كل الصفحات التي وردت الإشارة فيها إلى الموارد المالية، ولكن نكتفي فقط بأهم الإشارات في الصفحات، ص: ٧٠، ٧١، ٩٤، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨.

(١٥٧) نكتفي من تلك الحوادث والقراءات التاريخية بأهمها، مثلما ورد في ص: ٧٣ ـ ٧٤، عن قضاء الخليفة الفاطمي المنصور على ثورة أحد زعماء الخوارج ويدعى أبا يزيد مخلد بن كيداد، وص: ١٠٣ عن حال بلاد المغرب في ظل حكم نائب الفاطميين، يوسف بن زيري بن مناد جد الأمراء الزيريين أو الصنهاجيين الذين استقلو بعد ذلك بالمغرب.

(١٥٨) أنظر ص: ٩٠ (صراع مذهبي بين المالكية والشيعة الموسويين في بلاد السوس الأقصى بالمغرب الأقصى)، وص: ٩٣ ـ ٩٤ (صراع مذهبي بين الإباضية والمعتزلة في طرابلس). وكذلك ص: ٩٩ ـ ١٠٠ (صراع مذهبي بين الإباضية والمعتزلة في مدينة سجلماسة).

(١٥٩) أنظر مثلاً، ص: ٧٣ ـ ٧٤ عن ارتياحه للقضاء علي ثورة أبي يزيد الإباضي، وص: ٧٩ ـ ٨٠ عن ألمه وحزنه عن وقوع مدينتي سبتة ومرسى موسى بيد الأمويين في الأندلس، والتعبير =

العادات الاجتماعية: الحسنة والسيئة[160]، إلى الإنطباعات الخاصة، إلى غير ذلك من جوانب التدفق الحيوي لأدب الرحلة عنده.

جغرافية المدن أو الجغرافية الحضرية[161] في مادة ابن حوقل:

سنكتفي وفق منهجنا الإنتقائي بذكر نموذج واحد من نماذج الجغرافيا البشرية، وهو ذلك المتصل بالجغرافية الحضرية أو جغرافية المدن، التي هي فرع من فروع جغرافية العمران. لقد رسم لنا ابن حوقل لوحة طريفة ورائعة لنموذج من نماذج التخطيط الحضري، وذلك عند حديثه عن المهن والأسواق في مدينة الخالصة بصقلية، وهو الوصف الذي يبين لنا إلى أي حد بلغ حجم مدينة الخالصة ونموها، عبر الحديث عن أسواقها الكثيفة. قال ابن حوقل: **(وأكثر الأسواق فيها بين مسجد**

= المهم جداً، وهو رغبته في عودتها بقوله عن مرسى موسى خاصة: (وكأني بها راجعة إلى مولانا عليه السلام). ولم يحدد ابن حوقل اسم الخليفة الفاطمي، وإن كان يظن أنه الخليفة الذي دخل المغرب وعاش فيه إبَّان خلافته، وهو الخليفة المنصور. (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ).

وعن ضم الأمويين لهاتين المدينتين، أنظر عبد العزيز الفيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ص: ٦٥ وما بعدها، ص ١٤٧ ومابعدها.

(١٦٠) أنظر ص: ٩٥ عن العادات الحسنة لأهل المغرب، والعادات السيئة ـ من وجهة نظره ـ التي أغرق في ذمها في حديثه عن أهل صقلية، ص: ١١٥ ـ ٢١٣.

(١٦١) عرَّف يوسف التوني: نفس المعجم السابق، ص: ١٥٧، جغرافية المدن أو الجغرافية الحضرية، بقوله: (هي فرع من جغرافية العمران، يدرس المدن من حيث موقعها وحجمها ونموها ووظائفها، وتوزيعاتها، وإقليمية المدن، وايكولوجيتها. ولهذا العلم أهميته الخاصة من الناحية التطبيقية، إذ تدخل بعض عناصره مباشرة في الجغرافيا التطبيقية والتخطيط الاقليمي).

ابن سقلاب، والحارة الجديدة: كسوق الزياتيين بأجمعهم، والدقاقين[١٦٢]، والصيارفة، والصيادنة[١٦٣]، والحدادين، والصياقلة[١٦٤]، وأسواق القمح، وَالطرَّازين، والسَّاكين، والأبزاريين[١٦٥]، وطائفة من القصَّابين، وباعة البقل، وأصحاب الفاكهة، والريحانيين، والجرَّارين[١٦٦]، والخبَّازين، والجدَّالين[١٦٧]، وطائفة من العطَّارين، والجزَّارين، والأساكفة، والدبَّاغين، والنجَّارين، والغضائريين[١٦٨]، والخشَّابين[١٦٩] خارج المدينة) (وببلرم طائفة من القصَّابين والجرَّارين والأساكفة، وبها للقصَّابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم، والقليل منهم

---

(١٦٢) الدقاق: الكثير الدق، وأما مادة: دقَّ في اللغة، فهي الشيء صيَّره دقيقاً أو خسياً أو حقيراً، ولعلهم الذين يدقون الحبوب والأرز وما إليها. إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع المكتبة العلمية، طهران، جزءان، ج ١، ص: ٢٩٠.

(١٦٣) الصيادنة مأخوذ من الصيدان، الذي يعني تقطيع حجر الفضة الخام، وواحداته: صيدانة. وقد يعني معنى الصيدلي في جمعه للعقاقير. أنظر ابن منظور: المصدر السابق، ج٣، ص: ٢٤٦.

(١٦٤) الصياقلة: مفردها: صيقل وصقّال، مأخوذ من فعل صقل: تجلية الشيء كالسيف والمرآة. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم الوسيط، ج١، ص: ٥٣١.

(١٦٥) البزَّار: بائع البزور. والبزور، مأخوذة من مادة بزر، وهي: الحب يلقى في الأرض للإنبات.

(١٦٦) الجرَّار: صانع الجرار. والجَّرة إناء من خزف، والجمع جِرار. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق، ج٢، ص: ١١٦.

(١٦٧) الجدَّال: بائع الجَدَال، والجَدَال: البلح إذا اخضرَّ واستدار. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفس المعجم السابق والجزء أعلاه، ص: ١١١.

(١٦٨) الغضَّار، مأخوذة من مادة: غَضَرَ: الجِلْدُ أجاد دباغته. والغاضر: الجلد الذي أجيد دبغه. ولعل هذه هي المهنة المقصودة. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج٢، ص: ٦٦٠.

(١٦٩) الخشَّاب: بائع الخشب. إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج١، ص: ٢٣٤.

في المدينة برأس السماط، ويجاوره القطّانون، والحلاّجون[١٧٠]، والحذّاؤون، وبها سوق صالح)[١٧١].

وفي اعتقادنا أن هذه المادة التي كتبها ابن حوقل بناءً على مشاهداته، تعد مادة جغرافية أصيلة، وذلك بإظهارها للنشاط السكاني، والنمو الاقتصادي لمدينتي: الخالصة، وبلرم أو بالرمو.

---

(١٧٠) الحلاّج: من صنعته الحلاجة، والحلاجة، تخليص القطن من بذره، فهو محلوج.
إبراهيم مصطفى وآخرون: نفسه، ج١، ص: ١٩١.

(١٧١) ابن حوقل: نفسه، ص: ١١٤.

الخاتمة

وبعد. هذا هو ابن حوقل الذي تعددت إهتماماته الجغرافية، فلبس رداء الجغرافي في أقطار معينة، عندما وصفها وصفاً جغرافياً أو وصف جغرافيتها الإقليمية، كأدق ما يكون، ونحّى عنه هذا الرداء جانباً في أقطار أخرى، وارتدى ثوب الرحالة. ومع أنه ظهر بمظهر الجغرافي الأصيل الباحث عن مجالات الجغرافية الإقليمية التراثية في الأقطار التي ذكرناها فيما مضى، أي المغرب مثلاً، ثم السودان الغربي، إلاّ أنه لم يحفل بتتبّع كل المجالات كما أوضحنا فيما سبق.

وعلى أية حال فإن ابن حوقل كان في المجالين اللذين طرقهما موفقاً إلى حد كبير، وإن كان التوفيق قد خانه في مواطن، فلم يستنفر حاسته الجغرافية تماماً. ولكن بصفة عامة هذا لا يقلل من جمال وروعة اللوحة الطريفة التي رسمها للجناح الغربي للدولة الإسلامية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

الأصطخري (ت ٣٤٦هـ).

(١) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، منشورات دار القلم، القاهرة، ١٩٦١م.

البكري (ت ٤٨٧هـ):

(٢) جغرافية الأندلس وأوروبا ـ من كتاب المسالك والممالك ـ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، منشورات دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، منشورات وطبع دي سلان، الجزائر، ١٩١١م.

حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ):

(٤) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، منشورات دار الفكر، بيروت، لبنان، (طبعة مصورة)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ٦ مجلدات.

ابن حماد (ت ٦٢٨هـ):

(٥) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، منشورات دار العلوم، الرياض، ١٤٠١هـ.

ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ):

(٦) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

المقدسي (ت ٣٩٠هـ):

(٧) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، منشورات المكتبة الجغرافية بليدن، ١٩٠٦م.

ابن منظور (ت ٧١١هـ):

(٨) لسان العرب، منشورات دار صادر، دون سنة الطبع، ١٥ مجلداً.

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ):

(٩) معجم البلدان، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٥ أجزاء.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

ابراهيم طرخان:

(١) امبراطورية غانة الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

(٢) دولة مالي الإسلامية، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

إبراهيم مصطفى وآخرون:

(٣) المعجم الوسيط، منشورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبع المكتبة العلمية، طهران، جزءان.

إحسان عباس:

(٤) العرب في صقلية ـ دراسة في التاريخ والأدب ـ منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٥م.

أحمد رمضان أحمد:

(٥) الرحلة والرحالة المسلمون، منشورات دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع، جدة، دون سنة للطبع.

أحمد مختار العبادي:

(٦) في تاريخ المغرب والأندلس، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨م.

آدم متـر:

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ـ تعريب محمد عبدالهادي أبو ريدة، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، جزءان.

إغناطيوس كراتشكوفسكي:

(٨) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ نقلة عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

حسن إبراهيم حسن:

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٨١م.

حسن أحمد محمود:

(١٠) الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، منشورات دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.
حسن حسني عبدالوهاب:
(١١) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، منشورات مكتبة المنار، تونس، ١٩٧٢م، ط ٣، ٣ أقسام ـ القسم الثاني (ط ٢ ـ ١٩٨٢م).
خير الدين الزركلي:
(١٢) الأعلام، منشورات دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٨٠م، ٨ مجلدات.
سعد زغلول عبدالحميد
(١٣) تاريخ المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٧٩م، جزءان.
السيد عبدالعزيز سالم:
(١٤) تاريخ المغرب الكبير ـ العصر الإسلامي ـ وهو جزء من موسوعة تتحدث عن بلاد المغرب في العصور القديمة، والعصر الإسلامي، والعصر الحديث، منشورات دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
شوقي ضيف:
(١٥) الرحلات، منشورات دار المعارف، القاهرة، مصر، دون سنة للطبع، ط ٣.
الشيخ الأمين عوض الله:
(١٦) العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين: مالي وسنغي. منشورات دار المجمع العلمي بجدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
صالح مفتاح:
(١٧) برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ـ رسالة ماجستير في الآداب، مقدمة إلى كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ جامعة القاهرة، (لم تنشر بعد).
صلاح الدين الشامي:
(١٨) الفكر الجغرافي ـ سيرة ومسيرة ـ، منشورات دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
عبدالله يوسف الغنيم:
(١٩) مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
عبد الرحمن حميده
(٢٠) أعلام الجغرافيين العرب، منشورات دار الفكر، دمشق، ط ٤، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
عبدالعزيز بن عبدالله

(٢١) تاريخ الحضارة المغربية، منشورات دار السلمي للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٦٣م، ٣ أجزاء.

عبدالعزيز الفيلالي:

(٢٢) العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ٢، ١٩٨٣م.

عبدالعليم عبدالرحمن خضر:

(٢٣) أصل الأجناس البشرية بين العلم والقرآن الكريم، منشورات مؤسسة تهامة، سلسلة الكتاب الجامعي رقم ٣٣، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

عمر رضا كحالة:

(٢٤) معجم المؤلفين ـ تراجم مصنفي الكتب العربية، منشورات دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دون ذكر لرقم الطبعة ولا سنة الطبع، ١٥ مجلداً.

فيليب رفلة وزميله:

(٢٥) جغرافية الوطن العربي ـ دراسة طبيعية واقتصادية سياسية مع دراسة شاملة للدول العربية، منشورات مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٧١م.

محمد ضياء الدين الريس:

(٢٦) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، منشورات دار الأنصار، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٧م.

محمد عبدالله النقيرة:

(٢٧) التأثير الإسلامي في غربي إفريقية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محمد عبدالغني مسعودي:

(٢٨) إفريقية ـ دراسة شخصية الأقاليم، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

محمد عبدالوهاب خلاف:

(٢٩) قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي ـ الخامس الهجري ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية، منشورات الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

محمد محمود محمدين:

(٣٠) التراث الجغرافي الإسلامي، منشورات دار العلم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

نفيس أحمد:

(٣١) الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ـ ترجمة فتحي عثمان، منشورات دار القلم، الكويت، ط ٢ ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

نقولا زيادة:

(٣٢) الجغرافية والرحلات عند العرب، منشورات دار الأهلية للنشر والتوزيع، دون سنة للطبع ولا مكان للطبع.
(٣٣) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م.
يسري الجوهري:
(٣٤) جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م.
يوسف التوني:
(٣٥) معجم المصطلحات الجغرفية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٧٧م.

(٣٣) رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، منشورات دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦م.
يسري الجوهري:
(٣٤) جغرافية المغرب العربي، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨١م.
يوسف التوني:
(٣٥) معجم المصطلحات الجغرفية، منشورات دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٧٧م.

سلسلة اعداد الدورية لعامي ١٩٩٠ ـ ١٩٩٢

العنوان	المؤلف
١٣٣ ـ جيمورفولوجية الشروم على الساحل الشرقي للبحر الأحمر (المملكة العربية السعودية)	د. محمد سعيد البارودي
١٣٤ـ تطبيق نظم المعلومات الجغرافية (دراسة تحليلية)	د. خالد بن محمد العنقري
١٣٥ـ الظروف المناخية بالاحساء. (دراسة جغرافية)	
١٣٦ـ الآثار السلبية للهجرة الدولية في مجتمع المواطنين (دراسة حالة لدول مجلس التعاون الخليجي)	د. أمل يوسف العذبي الصباح
١٣٧ ـ جغرافية النشاط الاقتصادي في البحرين	د. محمود توفيق .
١٣٨ ـ موجات الحر في الأردن خلال الصيف	أ. د. نعمان شحادة
١٣٩ ـ التنظير في الفكر الجغرافي الحديث	أ. د. محمد علي عمر الفرا
١٤٠ ـ الجغرافيا والدين	أ. د. عبدالعزيز كامل
١٤١ ـ العلاقة بين التساقط والجريان السطحي للمياه في وادي سمائل بسلطنة عمان	د. محمود دياب راضي

سلسلة اصدارات وحدة البحث والترجمة

العنوان	المؤلف
١- تقلبات المناخ العالمي	عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز
٢- محافظة الجهراء	أ.د. زين الدين غنيمي
٣- تعدادات السكان في الكويت	د. أمل العذبي الصباح
٤- أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥- أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦- حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت	أ.د. صلاح الدين بحيري
٧- الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال الاستخدام الأرضي	أ.د. علي علي البنا
٨- البدو والثروة والتغير: دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان	ترجمة: د. عبد الاله أبو عياش
٩- الدليل البحري عند العرب	حسن صالح شهاب
١٠- بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة	د. ناصر عبدالله الصالح
١١- طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي	حسن صالح شهاب
١٢- نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية	د. عبدالحميد أحمد كليو د. محمد اسماعيل الشيخ
١٣ ـ جغرافية العمران عند ابن خلدون	د. عبدالعال الشامي
١٤ ـ السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة	د. محمد محمود السرياني
١٥ ـ جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية	د. محمد سعيد البارودي

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١ـ بيئة الصحاري الدافئة	ترجمة: أ.د. علي علي البنا
٢ـ الجغرافيا العربية	تعريب وتحقيق: د. عبدالله يوسف الغنيم د. طه محمد جاد
٣ـ مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي	د. عبدالعال الشامي
٤ـ العالم الثالث: مشكلات وقضايا	ترجمة: أ.د. حسن طه نجم
٥ـ التنمية الزراعية في الكويت	أ.د. محمد رشيد الفيل
٦ـ القات في اليمن: دراسة جغرافية	د. عباس فاضل السعدي
٧ـ هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة	تعريب: د. سعيد أبو سعدة
٨ـ منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٩ـ البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي	تحقيق القاضي اسماعيل بن علي الأكوع
١٠ـ المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق	د. أحمد حسن ابراهيم
١١ـ الأبعاد الصحية للتحضر	ترجمة: أ.د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢ـ التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد: دليل مراجع	د. صبحي المطوع
١٣ـ قواعد علم البحر	حسن صالح شهاب
١٤ـ الانسباق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض ـ الدمام	مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥ـ التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي	د. وليد المنيس د. عبدالله الكندري
١٦ـ كيف ننقذ العالم	ترجمة: أ.د. علي علي البنا أ.د. زين الدين عبدالمقصود
١٧ـ أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي	د. عبدالحميد كليو
١٨ـ الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية	ترجمة: أ.د. حسن أبو العينين
١٩ـ جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت	د. السيد السيد الحسيني
٢٠ـ الشوائب في تحقيق كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد	تأليف: شهاب الدين أحمد بن ماجد
٢١ـ التحضر في دول الخليج العربية	د. خالد محمد النعقري
٢٢ـ جغرافية العالم الثالث	تعريب: د. حسن طه نجم د. مكي محمد عزيز
٢٣ـ الصور الجوية ـ دراسة تطبيقية	د. خالد العنقري
٢٤ ـ جيومورفولوجية منخفض أم الرمم بالكويت	د. عبدالحميد كليو